المقاصد الساميات في كشف الشبهات

الشيخ الدكتور

علي بن عبد العزيز الشبل

الألوكة
www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

المقاصد الساميات في كشف الشبهات

لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب

(رحمه الله)

(١١١٥-١٢٠٦هـ)

لفضيلة الشيخ الدكتور

علي بن عبدالعزيز بن علي الشبل

عفا الله عنه وعن والديه ومشايخه والمسلمين آمين

جمع وإعداد

فواز بن وليد الإبراهيم

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع

المركز الرئيسي: الكويت. الجهراء

ص. ب: ١٥١٣ ـ الرمز البريدي: ١٠١٧.

هاتف: ٤٥٥٧٥٥٩ . فاكس: ٤٥٥٧٥٥٨

فرع حولي: شارع الحسن البصري،

ق٣٧ قسيمة ١٠ محل رقم ٣

تليفاكس: ٢٦٤١٧٩٧

البريد الالكتروني: elafco @ elafeo. com

صفحة على الانترنت: WWW. elafco. com

تقديم
معالي الشيخ صالح بن فوزان الفوزان
عضو اللجنة الدائمة وعضو هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وبعد : فقد قرأت هذه الرسالة المسمّاة : «المقاصد الساميات ، في كشف الشبهات» وهي تعليقات على رسالة كشف الشبهات **للشيخ محمد بن عبدالوهاب** ، قام بهذه التعليقات الشيخ : علي بن عبدالعزيز الشبل ـ وفقه الله ـ فوجدتها تعليقات سديدة مفيدة ، فجزاه الله خيراً ونفع بهذه التعليقات ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

كتبه :

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

صورة من تقديم معالي الشيخ صالح بن فوزان الفوزان
عضو اللجنة الدائمة وعضو هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمدللَّه، نحمدُهُ ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد... فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد وشرَّ الأمور مُحدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. اللهم إنا نسألك علماً نافعاً وقلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً، علماً تُعلي به مقامنا وتُصلح به حالنا، وتُسْلل به سخائم قلوبنا، ويَبْلغنا عوالي جنانك ويباعدنا أسباب سخطك ومقتك ونيرانك.

فهذه تأملات ومجالس علمية في مذاكرة في مقاصد كتاب كشف الشبهات، الرسالة الماتعة النافعة لشيخ الإسلام المجدد لما اندرس من معالم الدين في القرن الثاني عشر، الشيخ أبي عبدالله محمد بن

عبدالوهاب بن سليمان بن علي المشرفي الوهيبي الحنظلي التميمي، المولود في سنة ١١١٥هـ بالعيينية والمتوفى مأسوفاً على فقده في عام ١٢٠٦ من الهجرة في الدرعية، رحمه اللّه وأجزل له المثوبة وجمعنا وإياه ووالدينا ومشايخنا في أعلى عليين صُحبة النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحُسن أولئك رفيقا.

وكشف الشبهات هذا المختصر النافع المفيد، أقول معتذراً: إنهُ لا يتأتى الكلام عليه في هذه المجالس، ولكن ما دام أن الله جل وعلا منَّ بهذه الفرصة فتكون المذاكرة حول مقاصد هذه الرسالة، مقاصدها مع بعض مضامينها وألفاظها، وإن فسَح الله بالأجل وكتب في العمر لقاءً آخر تكون هناك مذاكرة لهذه الرسالة في عباراتها وفي أصلها. على أن أهل العلم مازالوا يولون هذه الرسالة «كشف الشبهات» عنايتهم حفظاً وتفهماً ودرساً لها في مجالسهم العلمية.. حتى غدت أحد المتون المهمة في باب توحيد العبادة مما يدرسه طلاب العلم في تدرجهم العلمي.(١)

ولذا تنوعت عليها الشروح والحواشي ما بين مختصر ومتوسط ومطول.

وتوجهت الهمة لدرسه بطريقة جديدة مختصرة في التنويه والتنبيه على مقاصدها، طلباً للاختصار وتحقيقاً لمقصود الماتن ـ رحمه الله.

وهذه الرسالة على وجازة ألفاظها، حوت شُبهاً مما عوّل به المناوئون

---

(١) وقد انتدب لتلخيص المقاصد وتبييضها ومراجعتها مشكوراً الأخ الشيخ فواز الإبراهيم إمام وخطيب في الجهراء بالكويت.

لدعوة الشيخ لدعوة التوحيد، في الداخل من بعض علماء ومطاوعة ومساجد في الخارج من أهل الأهواء والبدع، عوّلوا على هذه الشبه في القدح بالدعوة والقدح بالشيخ، بل والقدح في عقيدة التوحيد: توحيد العبادة والربوبية، وتسويغ ما ينافيه من الشرك فيهما: بدعاء غير الله من السادات والأولياء والنذر لهم والاستغاثة بهم والذبح لمقاماتهم وأضرحتهم، واعتقاد تفريجهم الكروب وقضاء الحاجات والغوث والمدد... إلخ.

نعوذ بالله من الخذلان والمآل إلى السعير والنيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي هذه التعليقات رمتُ السير على منوال شيخ مشايخنا العلامة عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي (١٣٧٦هـ) رحمه الله في بيان لمقاصد كتاب التوحيد في حاشيته عليه المسماة «القول السديد..»، إذ التشبه بالكرام فلاح، راجياً من ربنا سبحانه وتعالى العون والتوفيق، والرضا والقبول، وأن ينفع بها في الأولى والآخرة، ويحقق بها الزلفى لديه بمرضاته، إنه سبحانه سميع قريب مجيب.

وهو سبحانه حسبنا وحسبهم ونعم الوكيل.

وكتبه الفقير إلى ربه الأجلّ

علي بن عبدالعزيز بن علي الشبل

منهج الشيخ المجدد
محمد بن عبدالوهاب
رحمه الله تعالى
في كشف الشبهات

منهج الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ في كشف الشبهات

الشيخ ـ رحمه الله ـ نهج في هذه الرسالة منهج المقدمة، ثم الجواب المجمل على هذه الشبه، ثم شرع بالجواب المفصل عن نحو ثلاث عشرة شبهة ثم ذكر خاتمة جامعة جليلة في هذا المقام توضح وتختصر موقف الشيخ من مسألة التكفير إجمالاً وتعييناً.

وهذه الشبه ورد بعضها إلى الشيخ من بعض علماء الإحساء، المنتسبين للسنة لكنهم ممن حقد على الشيخ وعلى دعوته، واتهموه بأنه يُكفِّر المسلمين! ويُكفِّر من يقول لا إله إلا الله! هذه الدعوة ومقالة السوء التي لا نزال نسمعها من طوائف من الناس إلى الآن، لا سيما ممن حنق على التوحيد وأهله، وبرَّر الشرك والكفر للناس وللعوام وسوَّغه. فهذه الدعوة نسمعها من فئتين عظيمتين هما:

(١) الروافض و(٢) الصوفية القبورية يتهمون بها دعاة التوحيد؛ فيصفونهم بوصف الوهابية أو بأنهم يُكفِّرون المسلمين أو أنهم يُبيحون دماءهم أو ببعض الأنبياء والأئمة والأولياء والصالحين.. إلخ.

وهذه الشبه جاءت من بعض المنتسبين للعلم من العلماء، وإذا كانت الشبه تأتي من علماء فيتناقلها عنهم العوام وطلابهم المتعصبين لهم فيكون لها شأن خطير عليهم وعلى غيرهم! وهذا أمرٌ لا يخفى.

مكانة كشف الشبهات

وكشف الشبهات من المتون التي كان العلماء ـ علماؤنا رحمهم الله وبارك الله فيمن بقي منهم ـ كانوا يعتنون بهاويؤكدون أن طالب العلم لابد أن يقرأها ويتفهم معانيها، حيث تُعطيه حصانة وقوة، وهي سلاح له في باب دعوته ومناقشته أهل البدع أو أهل الكفر أو معظمي المقامات والأضرحة تعظيم غلوٍ وعبادةٍ وشرك وبدع، الذين يدعون أنهم يقولون لا إله إلا الله، فلا يكفرون بقولهم إياها وإن لم يحققوها ويقوموا بحقها من إفراد الله بالعبادة من الدعاء والطلب والذبح والنذر . . . إلخ .

(فائدة)

وكان المشايخ غالباً ما يقرأون رسالة «كشف الشبهات» بعدما يقرأون «ثلاثة الأصول» و«القواعد الأربع» في متون عقيدة التوحيد، وكلها من تصنيف الشيخ المجدد ـ رحمه الله ـ وفي هذا الزمان يناسب قراءة ودراسة «**كشف الشبهات**» بعد «**ثلاثة الأصول**»، و«**كتاب التوحيد**»؛ وذلك لأن هذه الشبهات يناسب أن تُكشف بعد معرفة التوحيد، بل لا أخفيكم سراً أنه كان النابهون والحريصون من طلبة العلم يحفظونها، فيحفظون ألفاظ «كشف الشبهات» كما تُحفظ «ثلاثة الأصول» ويُحفظ «كتاب التوحيد». وهذا يدل على عناية أولئك بالعلم واهتمامهم به وحرصهم عليه، وأدركت جماعة من المتميزين من أهل

العلم من مشايخنا كانوا يحفظونها، وكان حفظهم إياها مصدر عناية بهذا المتن وإجلال له، ومبعث اعتزاز من مشايخهم بهم[1].

وهذا يدل على مكانة «كشف الشبهات» ضمن درر متون العقيدة عند طلاب العلم ولدى علماء السنة والتوحيد.

وأظن أن طلاب العلم إذا اعتنوا بهذا المتن المبارك: «كشف الشبهات» ودرسوه وفهموه وحفظوه، انحلَّت أمامهم أكثر شبهات المخالفين والمناوئين في توحيد المرسلين وعبادة رب العالمين.

(١) [لطيفة] ممن كان يحفظها: شيخنا الشيخ صالح بن علي بن غصون ـ رحمه الله ـ وكان له مقام عظيم عند شيخه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، حتى قال: «صالح بن غصون إنسان عين» أي بؤبؤ العين، لتمكنه وحرصه، ولهذا اعتنى بها النابهون فحفظوها مقدمة، ويحفظون الحموية الكبرى، بل كانوا يحفظون مسائل كتاب التوحيد وهذا مما يتنافس فيه طلاب العلم في طلبهم للعلم وحرصهم عليه، وكنا نسمع منهم ما يشحذ الهمم في العلم والعمل!

متن كشف الشبهات

متن

كشف الشبهات

بسم الله الرحمن الرحمن

قال الإمام المجدِّد محمد بن عبدالوهاب. رحمه الله تعالى .:

(اعلم رحمك الله أنَّ التوحيدَ هو إفرادُ الله بالعبادة، وهو دينُ الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده. فأولُّهم نوحٌ عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا، وآخر الرسل محمد، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين، أرسله إلى قوم يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله. يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله، ونريد شفاعتهم عنده؛ مثل الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين. فبعث الله إليهم محمداً يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله لا يصلح منه شئ لغير الله لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل فضلا عن غيرهما، وإلا فهؤلاء المشركون مقرون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي إلا هو، ولا يميت إلا هو،

ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيها كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره.

فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء الذين قاتلهم رسول الله يشهدون بهذا فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ (يونس : ٣١) وقوله : ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (المؤمنون) وغير ذلك من الآيات.

فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا وأنه لم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد) كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلاً ونهاراً.

ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا له، أو يدعوا رجلاً صالحاً مثل اللات: أو نبيا مثل عيسى وعرفت أن رسول الله، قاتلهم على هذا الشرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ

أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الجن) وقال: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ (الرعد: ١٤) وتحققت أن رسول الله قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والنذر كله لله، والذبح كله لله، والاستغاثة كلها لله، وجميع أنواع العبادات كلها لله، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام، وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء، أو الأولياء، يريدون شفاعتهم، والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم.

عرفت حينئذٍ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون، وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور، سواء ملكا، أو نبياً، أو وليا، أو شجرة، أو قبراً، أو جنياً لم يريدوا أن الإله هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قدمت لك، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ السيد. فأتاهم النبي يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي (لا إله إلا الله) والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها. والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلق به والكفر بما يعبد من دون الله والبراءة منه، فإنه لما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿اجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشئ عجاب﴾ (ص:٥).

فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشئ من المعاني.

والحاذق منهم يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا الله، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله.

إذا عرفت ما ذكرت لك معرفة قلب، وعرفت الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨) وعرفت دين الله الذي أرسل به الرسل من أولهم إلى آخرهم الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وعرفت ما أصبح غالب الناس عليه من الجهل بهذا أفادك فائدتين:

الأولى: الفرح بفضل الله وبرحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ (يونس).

وأفادك أيضاً الخوف العظيم، فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه، وقد يقولها وهو جاهل، فلا يعذر بالجهل، وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله تعالى كما كان

يفعل الكفار المشركون، خصوصاً إن ألهمك الله ما قص عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم، أنهم أتوه قائلين: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ (الاعراف: ١٣٨) . فحينئذٍ يعظم حرصك وخوفك على ما يخلصك من هذا وأمثاله.

وأعلم أنه سبحانه من حكمته لم يبعث نبيا بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام: ١١٢). وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ (غافر: ٨٣).

إذا عرفت ذلك، وعرفت أن الطريق إلى الله لا بد له من أعداء قاعدين عليه أهل فصاحة وعلمٍ وحُجج، فالواجب عليك أن تتعلم من دين الله ما يصير لك سلاحاً تقابل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدمهم لربك عز وجل: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾. ولكن إذا أقبلت على الله، وأصغيت إلى حججه وبيناته، فلا تخف ولا تحزن ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ (النساء: ٧٦).

والعامي من الموحدين يغلب ألفاً من علماء هؤلاء المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ (الصافات)، فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان، وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح، وقد من الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾ (النحل) فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها، كما قال تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾، قال بعض المفسرين: هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة.

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا فنقول:

جواب أهل الباطل من طريقين: مجمل، ومفصل.

أما المجمل فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها، وذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (آل عمران : ٧) .

وقد صح عن رسول الله، أنه قال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم».

مثال ذلك إذا قال لك بعض المشركين: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ (يونس: ٦٢)، أو استدل بالشفاعة أنها حق، وأن الأنبياء لهم جاه عند الله أو ذكر كلاماً للنبي يستدل به على شئ من باطله، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره، فجاوبه بقولك: إن الله ذكر أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه، وما ذكرته لك من أن الله ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية، وأن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله هذا أمر محكم بين، لا يقدر أحد أن يغيير معناه، وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي لا أعرف معناه، ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي لا يخالف كلام الله عز وجل، وهذا جواب سديد، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى، فلا تستهن به فإنه كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾ (فصلت).

وأما الجواب المفصل: فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة على دين الرسل يصدون بها الناس عنه.

منها قولهم: نحن لا نشرك بالله، بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا، فضلا عن عبد القادر أو غيره، ولكن أنا مذنب والصالحون لهم جاه عند الله، وأطلب من الله بهم، فجاوبه بما تقدم وهو أن الذين قاتلهم رسول الله مقرون بما ذكرت، ومقرون بأن أوثانهم لا تدبر شيئاً، وإنما أرادوا الجاه والشفاعة. واقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضحه.

فإن قال: هؤلاء الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام، كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام أم كيف تجعلون الأنبياء أصناماً؟ فجاوبه بما تقدم فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله، وأنهم ما أرادوا ممن قصدوا إلا الشفاعة. ولكن إذا أراد أن يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكره، فاذكر له أن الكفار منهم من يدعو الصالحين والأصنام ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ (الإسراء: ٥٧)، ويدعون عيسى ابن مريم وأمه، وقد قال تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

(٧٦)﴾ (المائدة) واذكر له قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾ (سبأ) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ (المائدة)

فقل له: أعرفت أن الله كفر من قصد الأصنام، وكفر من قصد الصالحين وقاتلهم رسول الله.

فإن قال: الكفار يريدون منهم: وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار لا أريد إلا منه والصالحون ليس لهم من الأمر شئ ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم.

فالجواب: أن هذا قول الكفار سواء بسواءٍ فاقرأ عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٣) وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٨)، وقوله تعالى: ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾.

واعلم أن هذه الشبه الثلاث هي أكبر ما عندهم، فإذا عرفت أن الله

وضحها في كتابه، وفهمتها فهماً جيداً فما بعدها أيسر منها. فإن قال: أنا لا أعبد إلا الله وهذا الإلتجاء إلى الصالحين، ودعاءهم ليس بعبادةٍ. فقل له: أنت تقر أن الله فرض عليك إخلاص العبادة وهو حقه عليك؟ فإذا قال: نعم، فقل له: بين له هذا الذي فرض عليك وهو إخلاص العبادة لله وحده وهو حقه عليك فإن كان لا يعرف العبادة ولا أنواعها فبينها له بقولك: قال الله تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) ﴾ (الأعراف). فإذا أعلمته بهذا فقل له: هل علمت هذا عبادة لله؟ فلا بد أن يقول لك: نعم، والدعاء مخ العبادة، فقل له: إذا أقررت أنه عبادة لله ودعوت الله ليلاً ونهاراً خوفاً وطمعاً، ثم دعوت في تلك الحاجة نبياً أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره؟ فلا بد أن يقول: نعم، فقل له: فإذا عملت بقول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)﴾ (الكوثر)، وأطعت الله ونحرت له هل هذا عبادة، فلا بد أن يقول: نعم، فقل له: فإذا نحرت لمخلوق نبي أو جني أو غيرهما، هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟ فلا بد أن يقر، ويقول نعم، وقل له أيضاً: المشركون الذين نزل فيهم القرآن، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلا بد أن يقول: نعم، فقل له: وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء

ونحو ذلك، وإلا فهم مقرون أنهم عبيد الله وتحت قهره، وأن الله هو الذي يدبر الأمر ولكن دعوهم، والتجئوا إليهم للجاه والشفاعة، وهذا ظاهر جدا.

فإن قال أتنكر شفاعة رسول الله وتبرأ منها فقل: لا أنكرها ولا أتبرأ منها، بل هو الشافع والمشفع وأرجو شفاعته، ولكن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى: ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾ ولا تكون إلا من بعد إذن الله كما قال عز وجل: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، ولا يشفع في أحد إلا من بعد أن يأذن الله فيه كما قال عز وجل: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾، وهو لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران: ٨٥)، فإذا كانت الشفاعة كلها لله ولا تكون إلا بعد إذنه ولا يشفع النبي ولا غيره في أحدٍ حتى ياذن الله فيه، ولا يأذن إلا لأهل التوحيد بين لك أن الشفاعة كلها لله، وأطلبها منه، وأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفعه في، وأمثال هذا.

فإن قال: النبي أعطي الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله، فالجواب أن الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا فقال: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴿١٨﴾ ﴾ (الجن). فإذا كنت تدعو الله أن يشفع نبيه

فيك، فأطعه في قوله ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ (الجن) وأيضاً فإن الشفاعة أعطيها غير النبي، فصح أن الملائكة يشفعون والأفراط يشفعون والأولياء يشفعون، أتقول: إن الله أعطاهم الشفاعة وأطلبها منهم؟ فإن قلت هذا رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكر الله في كتابه، وإن قلت لا، بطل قولك أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله.

فإن قال أنا لا أشرك بالله شيئاً حاشا وكلا ولكن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك، فقل له: إذا كنت تقر ان الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا وتقر أن الله لا يغفره، فما الذي حرمه الله وذكر أنه لا يغفره، فإن كان لا يدري، فقل له: كيف تبرئ نفسك من الشرك وأنت لا تعرفه؟ أم كيف يحرم الله عليك هذا ويذكر أنه لا يغفره ولا تسأل عنه ولا تعرفه، أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا؟؟

فإن قال: الشرك عبادة الأصنام ونحن لا نعبد الأصنام فقل: ما معنى عبادة الأصنام؟ أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها؟ فهذا يكذبه القرآن، كما في قوله تعالى: قل من يرزقكم من السماء والأرض الآية.

وإن قال هو من قصد خشبة أو حجراً أو بنية على قبر أو غيره يدعون ذلك ويذبحون له ويقولون، إنه يقربنا إلى الله زلفى ويدفع عنا ببركته ويعطينا ببركته.

فقل صدقت، وهذا فعلكم عند الأحجار والبنايات التي على القبور وغيرها، فهذا أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام، وهو المطلوب ويقال له أيضاً قولك: «الشرك عبادة الأصنام»، هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا، وأن الاعتماد على الصالحين ودعاءهم لا يدخل في هذا؟ فهذا يرده ما ذكر الله في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة أو عيسى أو الصالحين فلا بد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحداً من الصالحين فهو الشرك المذكور في القرآن وهذا هو المطلوب.

وسر المسألة أنه إذا قال: أنا لا أشرك بالله، فقل له: وما الشرك بالله؛ فسره لي؟ فإن قال: هو عبادة الأصنام، فقل: وما معنى عبادة الأصنام فسرها لي ؟ فإن قال أنا لا أعبد إلا الله وحده فقل: ما معنى عبادة الله وحده فسرها لي؟ فإن فسرها بما بينه القرآن فهو المطلوب، وإن لم يعرفه فكيف يدعي شيئاً وهو لا يعرفه، وإن فسر ذلك بغير معناه بينت له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله

وعبادة الأوثان، وأنه يفعلونه في هذا الزمان بعينه، وأن عبادة الله وحده لا شريك له هي التي ينكرونها علينا ويصيحون كما صاح إخوانهم حيث قالوا: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ (ص: ٥).

فإن قال: إنهم لا يكفرون بدعاء الملائكة والأنبياء، وإنما يكفرون لما قالوا: الملائكة بنات الله؛ فإنا لم نقل: عبد القادر ابن الله ولا غيره. فالجواب: إن نسبة الولد إلى الله كفر مستقل؛ قال الله تعالى: ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد﴾ (الإخلاص) ، والأحد الذي لا نظير له، والصمد المقصود في الحوائج، فمن جحد هذا؛ فقد كفر، ولو لم يجحد السورة. وقال تعالى: ما اتخذ الله من ولدٍ وما كان معه من إلهٍ]المؤمنون: ٩١[، ففرق بين النوعين، وجعل كلا منهما كفراً مستقلاً. وقال تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾ (الأنعام: ١٠٠)، ففرق بين كفرين. والدليل على هذا أيضاً أن الذين كفروا بدعاء اللات، مع كونه رجلاً صالحاً؛ لم يجعلوه ابن الله، والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك، وكذلك أيضاً العلماء في جميع المذاهب الأربعة؛ يذكرون في باب حكم المرتد أن المسلم إذا زعم أن لله ولداً؛ فهو مرتد، ويفرقون بين النوعين، وهذا في غاية الوضوح.

وإن قال: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (يونس: ٦٤). فقل: هذا هو الحق، ولكن لا يُعبدُون، ونحن لم نذكر إلا عبادتهم مع الله، وشركهم معه، وإلا؛ فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكرامتهم، ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلال... إلخ، ودين الله وسط بين طرفين، وهدى بين ضلالتين، وحق بين باطلين.

فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا هذا «الاعتقاد»، هو الشرك الذي أنزل الله في القرآن وقاتل رسول الله الناس عليه، فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين:

أحدهما: أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء، وأما في الشدة فيخلصون لله الدين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ (الإسراء: ٦٧) وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الأنعام: ٤٠) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا

مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ (الزمر : ٨) وقوله : ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (لقمان : ٣٢) .

فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله يدعون الله ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضر والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له، وينسون ساداتهم، تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً راسخاً؟ والله المستعان.

والأمر الثاني. أن الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله: إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة، ويدعون أشجاراً أو أحجاراً مطيعة لله ليست عاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يحلون لهم الفجور من الزنا، والسرقة، وترك الصلاة، وغير ذلك والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل الخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به.

إذا تحققت أن الذين قاتلهم رسول الله أصح عقولاً وأخف شركاً من هؤلاء فاعلم أن لهؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا، وهي من أعظم شبههم فاصغ سمعك لجوابها.

وهي إنهم يقولون: إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله ويكذبون الرسول، وينكرون البعث، ويكذبون القرآن ويجعلونه سحراً، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ونصدق القرآن، ونؤمن بالبعث، ونصلي، ونصوم، فكيف تجعلوننا مثل أولئك؟ فالجواب: أنه لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدق رسول الله في شئ وكذبه في شئ أنه كافر لم يدخل في الإسلام.

وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه، كمن أقر بالتوحيد، وجحد وجوب الصلاة، أو أقر بالتوحيد والصلاة، وجحد وجوب الزكاة، أو أقر بهذا كله وجحد الصوم، أو أقر بهذا كله وجحد الحج، ولما لم ينقد أناس في زمن النبي للحج، أنزل الله في حقهم ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾ (آل عمران) . ومن أقر بهذا كله وجحد البعث كفر بالإجماع، وحل دمه وماله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١)﴾ (النساء) ..

فإذا كان الله قد صرح في كتابه أن من آمن ببعضٍ فهو الكافر حقاً، وأنه يستحق ما ذكر. زالت هذه الشبهة، وهذه هي التي ذكرها بعض أهل الأحساء في كتابه الذي أرسل إلينا.

ويقال أيضاً: إذا كنت تقر أن من صدق الرسول في كل شئ وجحد وجوب الصلاة، أنه كافر حلال الدم بالإجماع، وكذلك إذا أقر بكل شئ إلا البعث، وكذلك إذا جحد وجوب صوم رمضان لا يجحد هذا، وصدق بذلك كله ولا تختلف المذاهب فيه، وقد نطق به القرآن كما قدمنا، فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي محمد، وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج، فكيف إذا جحد الإنسان شيئاً من هذه الأمور كفر؟ ولو عمل بكل ما جاء به الرسول، وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر، سبحان الله! ما أعجب هذا الجهل.

ويقال أيضاً: هؤلاء أصحاب رسول الله قاتلوا بني حنيفة وقد أسلموا مع النبي، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلون ويؤذنون، فإن قال: إنهم يقولون: أن مسيلمة نبي، قلنا: هذا هو المطلوب، إذا كان من رفع رجلا إلى رتبة النبي، كفر وحل ماله ودمه، ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة، فكيف بمن رفع

شمسان أو يوسف، أو صحابيا، أو نبيا، إلى مرتبة جبار السموات والأرض؟ سبحان الله ما أعظم شأنه ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (الروم).

ويقال أيضاً: الذين حرقهم علي بن أبي طالب بالنار، كلهم يدعون الإسلام، وهم من أصحاب علي وتعلموا العلم من الصحابة ولكن اعتقدوا في علي، مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان وأمثالهما، فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم؟ أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين؟ أم تظنون أن الاعتقاد في تاجٍ وأمثاله لا يضر، والاعتقاد في علي بن أبي طالب يكفر؟

ويقال أيضاً: بنو عبيدٍ القداحِ الذين ملكوا المغرب ومصر في زمان بني العباس، كلهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويدعون الإسلام، ويصلون الجمعة والجماعة فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه، أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين.

ويقال أيضاً: إذا كان الأولون لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول والقران، وإنكار البعث، وغير ذلك، فما

معنى الباب الذي ذكر العلماء في كل مذهب «باب حكم المرتد» وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه، ثم ذكروا أنواعاً كثيرة كل نوعٍ منها يكفر ويحل دم الرجل وماله، حتى أنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها، مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب.

ويقال أيضاً: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ (التوبة: ٧٤). أما سمعت أن الله كفرهم بكلمة مع كونهم في زمن رسول الله يجاهدون معه ويصلون معه ويزكون ويحجون ويوحدون، وكذلك الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾ (التوبة) فهؤلاء الذين صرح الله أنهم كفروا بعد إيمانهم وهم مع رسول الله في غزوة تبوك، قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح.

فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم: تكفرون من المسلمين أناساً يشهدون أن لا إله إلا الله ويصلون ويصومون، تأمل جوابها فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق.

ومن الدليل على ذلك أيضاً حكى الله عن بني إسرائيل مع

إسلامم وعلمهم وصلاحهم أنهم قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨) ، وقول ناسٍ من الصحابة: «اجعل لنا ذات أنواط» فحلف أن هذا نظير قول بني إسرائيل ﴿اجعل لنا إلهاً﴾.

ولكن للمشركين شبهة يدلون بها عند هذه القصة وهي أنهم يقولون: فإن بني إسرائيل لم يكفروا بذلك، وكذلك الذين قالوا: «اجعل لنا ذات أنواط» لم يكفروا.

فالجواب أن تقول: إن بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك وكذلك الذين سألوا النبي لم يفعلوا، ولا خلاف في أن بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك، ولو فعلوا ذلك لكفروا، وكذلك لا خلاف في أن الذين نهاهم النبي لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا، وهذا هو المطلوب.

ولكن هذه القصة تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها فتفيد التعلم والتحرز ومعرفة أن قول الجاهل التوحيد فهمناه أن هذا من أكبر الجهل ومكايد الشيطان.

«وتفيد» أيضاً أن المسلم إذا تكلم بكلام كُفر وهو لا يدري فنبه على ذلك فتاب من ساعته، أنه لا يكفر، كما فعل بنو إسرائيل والذين سألوا النبي، «وتفيد» أيضاً أنه لو لم يكفر فإنه يغلظ عليه الكلام تغليظاً شديداً كما فعل رسول الله.

وللمشركين شبهة أخرى يقولون: إن النبي أنكر على أسامة قتل من قال: لا إله إلا الله، وقال له: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟» وكذلك قوله: «امرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»، وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها، ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل.

فيقال لهؤلاء الجهلة: معلوم أن رسول الله قاتل اليهود وسباهم وهو يقولون: لا إله إلا الله، وأن أصحاب رسول الله قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ويصلون ويدعون الإسلام، وكذلك الذين حرقهم على بن أبي طالب بالنار.

وهؤلاء الجهلة يقولون: إن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال: لا إله إلا الله، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها، فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعاً من الفروع؟ وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أساس دين الرسل ورأسه، ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث، ولن يفهموا.

فأما حديث أسامة فإنه قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعى الإسلام إلا خوفاً على دمه وماله، والرجل إذا أظهر

الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (النساء: ٩٤). أي تثبتوا، فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله تعالى: فتبينوا ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبيت معنى، وكذلك الحديث الآخر وأمثاله.

معنى ما ذكرناه إن من أظهر التوحيد والإسلام وجب الكف عنه إلا أن يتبين منه ما يناقض ذلك.

والدليل على هذا أن رسول الله هو الذي قال: «أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟»، وقال: «أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولون لا إله إلا الله» هو الذي قال في الخوارج: «أينما لقيتومهم فاقتلوهم لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عادٍ» مع كونهم أكثر الناس عبادةً، وتهليلاً وتسبيحاً، حتى أن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم، وهم تعلموا العلم من الصحابة فلم تنفعهم «لا إله إلا الله» ولا كثرة العبادة، ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة.

وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة بني حنيفة، وكذلك أراد أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل منهم أنهم منعوا

الزكاة حتى أنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (الحجرات: ٦) ، وكان الرجل كاذباً عليهم، وكل هذا يدل على أن مراد النبي في الأحاديث التي احتجوا بها ما ذكرناه.

ولهم شبهة أخرى وهي ما ذكر النبي أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم، ثم بنوح، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى، فكلهم يعتذر حتى ينتهوا إلى رسول الله قالوا فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً.

والجواب أن تقول: سبحان من طبع على قلوب أعدائه، فإن الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لا ننكرها، كما قال تعالى في قصة موسى ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ (القصص: ١٥) وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب أو غيره في أشياء يقدر عليها المخلوق، ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله.

إذا ثبت ذلك فاستغاثتهم بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، وهذا جائز في الدنيا والآخرة، وذلك أن تأتي عند رجل

صالح حي يجالسك ويسمع كلامك وتقول له: ادع الله لي كما كان أصحاب رسول الله يسألونه ذلك في حياته، وأما بعد موته، فحاشا وكلا أنهم سألوا ذلك عند قبره، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف بدعائه نفسه؟.

ولهم شبهة أخرى وهي قصة إبراهيم لما ألقي في النار اعترض له جبريل في الهواء فقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم أما إليك فلا، فقالوا: فلو كانت الاستغاثة شركا لم يعرضها على إبراهيم.

فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه، فإنه كما قال الله تعالى فيه: شديد القوى فلو أذن له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال ويقلبها في المشرق أو المغرب لفعل، ولو أمره الله أن يضع إبراهيم في المشرق أو المغرب لفعل، ولو أمره الله أن يضع إبراهيم عليه السلام في مكانٍ بعيد عنهم لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل، وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلاً محتاجاً فيعرض عليه أن يقرضه أو أن يهبه شيئاً يقضي به حاجته فيأبى ذلك المحتاج أن يأخذ ويصبر إلى أن يأتيه الله برزق لا منة فيه لأحد، فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون؟

ولنختم الكلام بمسألة عظيمة مهمة تفهم مما تقدم ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها ولكثرة الغلط فيها فنقول:

لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل فإن اختل شئ من هذا لم يكن الرجل مسلماً، فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر مرتد معاند ككفر فرعون وإبليس وأمثالهما، وهذا يغلط فيه كثير من الناس يقولون: أن هذا حق ونحن نفهم هذا ونشهد أنه حق، ولكننا لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم، أو غير ذلك من الأعذار، ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق، ولم يتركوه إلا لشئ من الأعذار كما قال تعالى: ﴿اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (التوبة: ٩) وغير ذلك من الآيات، كقوله: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾. فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه، فهو منافق، وهو شر من الكافر الخالص ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ (النساء: ١٤٥).

وهذه المسألة مسألة طويلة تبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به، لخوف نقص دنيا أو جاه أو مداراة لأحد، وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً، فإذا سألته

عما يعتقده بقلبه فإذا هو لا يعرفه. ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله: أولاهما، قوله تعالى: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (التوبة: ٦٦) فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع رسول الله، كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه اللعب والمزح، تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر ويعمل به خوفاً من نقص مالٍ، أو جاهٍ أو مداراة لأحد، أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها.

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ (النحل)، فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه سواء فعله خوفاً أو مداراة، أو مشحةً بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله، أو فعل على موجة المزح أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره.

فالآية تدل على هذا من وجهين:

الأول قوله تعالى: ﴿إلا من أكره﴾، فلم يستثن الله تعالى إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على الكلام أو الفعل، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها.

والثاني قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد

والجهل والبغض للدين ومحبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظا من حظوظ الدنيا فآثره على الدين، والله سبحانه وتعالى أعلم وأعز وأكرم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.»

وهذا أوان الشروع في بيان المقاصد

لهذا الكتاب النفيس «كشف الشبهات»

بدأ رحمه الله كتابه بما يبدأ كتبه، والشيخ رحمه الله ـ له منهج في كتبه ورسائله لا سيما الرسائل المختصرة والمتون وأمثالها يبدأها بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) تأسياً بالكتاب العزيز، وبكتب النبي ﷺ[1]، واستأناساً بما روي من غير وجه «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله فهو أبتر»[2]، وبقوله: **(اعلم رحمك الله)**: أمر بالعلم، والأمرُ بالعلم أمرُ بخير، وأفضل الخير أن تعلم، وهذا تشبه واقتداء بالكتاب العزيز فإن أول أية أنزلت على النبي ﷺ ﴿**أقرأ باسم ربك**

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي بلفظ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم... الحديث. وفي كتاب الجهاد باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، وقوله تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله﴾، إلى آخر الآية، ومسلم في كتاب الجهان والنبيذ، أو باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل رقم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في أبي سفيان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٢/ ١٢٠٩)، وفي رواية في مسند الإمام أحمد: «كل أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله فهو أبتر» أو قال: «أقطع»، وقد ورد الحديث بروايات متعددة، فقد رواه أبوداود بلفظ «أقطع» ٩/ ١٨٩٤ وابن ماجه بلفظ «أجذم» (٤/ ٤٨٤٠)، وقد ذكر هذا الحديث غير واحد من أهل العلم في مصنفاتهم ومؤلفاتهم خصوصاً أئمة الدعوة السلفية وانظر غير مأمور مقدمة تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، وكذلك فتح المجيد وغيرهما.

الذي خلق﴾[1] اقـرأ: يعني: اعـلم، والله جل وعـلا قـال في أعـظم معلوم وأكمله وأشرفه في آية سورة محمد، وهو التوحيد: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**﴾[2]، ولهـذا نقل الشيخ مـحـمـد بن عبدالوهاب في «**ثلاثة الأصول**» عن الإمام البخاري في كتاب العلم أنه قال: باب العلم قبل القول والعمل وقول الله تعالىٰ: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾.

وهذه الجملة: البسملة ثم الأمر بالعلم والدعاء للمتعلم، منهج في رسائل الشيخ المختصرة ومتونه، تتميَّز به مختصراته ورسائله.

«**اعلم رحمك الله**» وهذا دعاء للمتعلم برحمة الله عليه، وأن يرحمه ربه، ومن رحمة الله عليه أن يعرف ويتعلَّم أشرف معلوم، وأن يعلم أردأ معلوم، فأشرف معلوم هو توحيد الله عز وجل، وأردأ معلوم هو الشرك، ومعرفة الشرك لا لذاته بل للحذر منه ليحذره الإنسان، وليحذره طالب العلم من باب معرفة الشر والخبث ليجانبه، كما قال الأول:

عـــــــرفت الشـــــــــر لا

للشــــــر ولكن لتـــــوقــــيــــه

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي رقم ١٣.

(٢) سورة محمد الآية (١٩).

ومـن لا يـعـــــــــرف الـشـــــــــر

من الخـــــــيـــــــر يقـع فـــــيـــــه

وحذيفة رضي الله عنه يقول: (**كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه**)(١)، والله جل وعلا ذكر عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لما: دعا ربه ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** (٣٥)﴾(٢)، فدعا ربه أن يُجنبه هوَ - وهو خليل الله - وأبنائه وهم أنبياء الله ورسله - عليهم الصلاة والسلام - الشرك بعبادة الأصنام، فمعرفة الشر لا تقل أهمية عن معرفة الخير، لا لذات الشر! ولكن للحذر منه والانتباه من الوقوع فيه أو التهاون من الوقوع والتساهل فيه، كما هو حال بعض المنتسبين إلى العلم في هذا الزمان، فإنه وإن لم يقع في الشرك لكنه يهوِّن من شأنه، ومن الوقوع فيه، أو يبرِّر للناس ما وقعوا فيه من الشرك أصغره وأكبره، بأمثال هذه الشبه والتلبيسات والمغالطات التي تولى الشيخ رحمه الله وجزاه عنا وعن المسلمين خيراً، الجواب عنها.

(١) أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الفتن (٧٠٨٤)، والمناقب (٣٦٠٧).

(٢) سورة إبراهيم الآية (٣٥).

قال رحمه الله (اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه بالعباده وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده، فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر).

هذه المقدمة في أن تعلم أن التوحيد الذي بعث الله به رسله من أولهم نوح ﷺ إلىٰ آخرهم محمد ﷺ، ولم يذكر الشيخ آدم عليه السلام لأنه كان نبياً مبعوثاً إلىٰ مؤمنين وهم أبنائه وزوجته، وفي الحديث لما سئل النبي ﷺ عن آدم أنبي كان؟ قال: «**نعم نبي مُكَلَّم**»، وبينه وبين نوح عليهم الصلاة والسلام عشرة قرون. (١)

فكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم علىٰ التوحيد حتىٰ حدث فيهم في قوم نوح الشرك، فبعثه الله بالتوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة.

فما هو هذا التوحيد؟ التوحيد له معنىٰ عند أهل السنة، وله معنىٰ عند الرافضة وله معنىٰ عند الصوفية وله معنىٰ عند الأشاعرة.

---

(١) روه ابن حبان وصححه ١٤/ ٦٩ والحاكم ٢/ ٢٦٢، وصححه ووافقه الذهبي، والدارمي في الرد على الجهمية (١٢٩٩) والطبري في الكبير ٨/ ١٣٩، وفي الأوسط (١/ ٢٦٨) مجمع البحرين، والبيهقي في الأسماء والصفات ٥٧٨، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وله شاهد عند أحمد ٥/ ١٧٨، والطيالسي ٤٧٨، في مسنديهما، والبراز في زوائده ١٦٠، عن أبي ذر رضي الله عنه.

● وقال ابن كثير في البداية والنهاية (ج ١ص١١٣) بعد أن ذكر رواية ابن حبان في صحيحه: هو على شرط مسلم ولم يخرجه.

* **فمعنى التوحيد عند أهل السنة**: هو إفراد الله بالعبادة، هو شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذا المقدمة كلها دائرة على تحقيق هذا المعنى، التوحيد؛ هو معنى لا إله إلا الله، وهو إفراد الله بالعبادة، بأنه لا أحد يستحق العبادة إلا الله.

* **أما التوحيد عند الرافضة والقبورية**: هو التقرب إلى الله جل وعلا بساداتهم وأوليائهم بصرف أنواع من العبادة لهم لأنهم لهم جاه وقدر عند الله فغدا التوحيد شركا وجعلو الشرك توحيداً، وشركهم بذبحهم القرابين ونذورهم ودعائهم واستغاثتهم بالحسين أو بالعباس أو بعبدالقادر أو بالدسوقي، أو بالعيدروس أو بالشاذلي أو بالبدوي أو بمحي الدين، أو بالمرسي أبو العباس، أو الكبَّاشي، أو البرهاني، أو الختمي، أو أحمد التيجاني، أو الهوّاري، أو شمس تبريز... أو بأسماء كثيرة عمَّت وطمت في بلاد المسلمين شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً، حيث جعلوا أصحاب المقامات والعتبات والأضرحة وسائط بينهم وبين الله بل تطور هذا عند بعضهم حتى اعتقدوا التأثير والنفع والضر والتصرف في أحوال الكون وهذا شرك في الربوبية.

١ - جعلهم وسائط بينهم وبين الله شرك في العبادة.

٢ - أن يعتقدوا أنهم مؤثرون يملكون النفع والضر والتصرف في العالم وهم أموات في قبورهم فهذا شرك في الربوبية.

* **فالتوحيد عند الصوفية غايته**: الفناء في المعبود، وهو تحقيق الجبر بطريق تحقيق توحيد الربوبية.

* **التوحيد عند الأشاعرة والمتكلمين:** هو إفراد الصانع المخترع وهو أيضاً فناء في توحيد الربوبية. ولهذا التوحيد الذي هو غاية عند الصوفية في طبقاتهم وفرقهم وعند الأشاعرة من المتكلمين والماتريدية وغيرهم فتوحيدهم الذي يفنون به أنفسهم هو الجبر، وهو أن لا يشاهد غير الله وكل فعل فهو طاعة لله، وسبيله وطريقه توحيد الربوبية: إفراد الله عز وجل بالخلق والرزق والصناعة والإحداث.

فهذا نوح عليه الصلاة والسلام أنكر قومه الشرك في أولئك الصالحين: ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وهم رجال صالحون كانوا في أولئك القوم فماتوا في وقت مقارب، فحزن عليهم قومهم فجاءهم الشيطان فسوّل لهم - والشيطان أيها الإخوة يطبخ على نار هادئة، لا يستعجل النتائج كما يفعل بعض المتهورين - جاء إلى هؤلاء وقال: صوّروا عليهم صوراً - يعني انحتوا لهم منحوتات تُشبهُهم - وانصبوها في مجالسكم فإذا رأيتموها نشطتم على العبادة، فجاءهم بمقصد حسن لكن السبيل إليه سيء وبدعة، ففعلوا ذلك فذهب ذلك الجيل وجاء جيل بعدهم من أحفادهم نُسي فيهم العلم، فجاءهم الشيطان وقال لهم: إن آباءكم ما صوّروا هذه الصّور إلا أنهم كانوا صالحين، وكانوا يستشفعون بهم الله، يتوسلون بهم إلى الله، فدعوهم فوقعوا في الشرك وعند ذلك بعث الله نوحاً عليه السلام، وهو أول شرك وقع في بني آدم فدلَّ ذلك على أن الشرك طارئ في بني آدم ليس أصيلاً.

ومختصو علم الاجتماع الذين أخذوا علمهم عن أساتذتهم في فرنسا

أو أوربا وأمريكا: من أمثال سارتر وغيره يقولون: إن الشرك في الإنسان أصيل، لأن الإنسان كان بدائياً في حياته وفي طعامه وشرابه ولبسه حتىٰ في معتقداته، ثم مازال يتطور حتىٰ بلغ التوحيد وهذا من أبطل الباطل!

فمَنْ أول جنس الإنسان؟ أليس آدم عليه السلام؟ فآدم كان موحداً، وكذا بنوه علىٰ عشرة قرون حتىٰ جاء الشرك، إذاً فالشرك طارئ علىٰ الإسلام والتوحيد ودخيل، والأصل في بني آدم أنهم كانوا أهل توحيد وإسلام.

والنبي ﷺ كسّر صور الصالحين ـ صورهم المنحوتة عليهم ـ حيث كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، صُوّرت علىٰ رجال صالحين منها من الأصنام التي كان العرب يعبدونها، اللات وهو رجل كان في الطائف وكان يلت السويق للحاج يطعمهم إياه، والسويق نوع من الطعام فلما مات وكان صالحاً عكفوا علىٰ قبره وأوحىٰ إليهم الشيطان أن صوّروا له صورة، فصوَّروا صورة هي رمز عن هذا الصنم فأصبحوا يتقربون إليه، وكذا الحال في مناة والعزىٰ وهبل(١)، والنبي ﷺ كسّر الأصنام وأبطلها لأن الإبطال لها إبطال لمادة الشرك.

لقد وُجَد من المسلمين من عاب علىٰ أتباع الرسول ممن كسَّر الأصنام وهدم الأضرحة وهذا في الحقيقة عيب علىٰ النبي ﷺ، ومن أعابهم دّل علىٰ أنه ما حقق التوحيد وما اعتنىٰ بهذه الدعوة ـ التي جاء بها محمد ﷺ ـ

(١) انظر تفسير ابن كثير لآية النجم: ﴿أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى﴾ ٤/ ١٢٦، وتاريخ الأمم والملوك، لابن جرير ٢/ ٣٦٧، وكتاب الأصنام للكلبي ٧.

فالنبي ﷺ كسّر الأصنام لأنها رموز لهذا الشرك وتكسيره إياها من حسم مادة الشرك، فهم ما عبدوا الحجر لذاته ولكن عبدوا ما يرمز إليه الحجر، تطوّر هذا ببعضهم مع طول العهد حتى عبدوا الأحجار واعتقدوا فيها النفع والضر.

ولهذا بلغ العرب في جاهليتهم الحضيض الداني في الوثنية، ومن صور وثنياتهم: أعراب بدو رُحل يسافر الأعرابي ثم يترك، فيتخذ أربعة أحجار ثلاثة ينصبها لقِدْرِه يطبخ عليها عشاءه، والرابع ينصبه يتقرب إليه، وهب أنه في مكان ليس فيه حجارة؟ هل كان يحمل معه الحجارة؟ لا يحملها معه إلا إذا كانت صغيرة، فكان أحدهم يجمع تراباً ويحلب عليه شاة ثم يعبده ولهذا النفوذ الكبير في شمال الجزيرة كان يقطن فيه أقوام من العرب وكان يُسمى عندهم برمل «عالج» رجل منهم، وهو أبو عثمان النهدي عبدالرحمن بن مَلْ التابعي المشهور(١)، أبوعثمان هذا عُمّرَ حتى بلغ مائة وثمانين سنة، تسعون سنة عاشها في الجاهلية ومثلها في الإسلام، يصف حالهم لما جاءهم داعي النبي ﷺ وأبو عثمان هذا مخضرم أدرك الجاهلية وأدرك الإسلام، لكنه ما لقي النبي ﷺ، وبالتالي لم يكن صحابياً، قال: جاءنا داعي النبي ﷺ وكنا في جاهلية جهلاء كان يعمد أحدنا إلى لقحته - إلى ناقتهِ وهم على الرمال الحمراء النفوذ الكبير (من شمال حائل إلى الجوف) بحار عظيمة من الرمل، لأن

(١) انظر: السير ٩/ ٣٥٤، وتهذيب الكمال ٢/ ١٤٦، وتهذيبه ١٠/ ١٢١، وتقريبه (٤٠٤٣).

النفوذ ليس فيه حجارة ـ فيحلبها عليه : يحلب الناقة على الأرض تحتها فتيبس وهي حمراء ويُصيبها اللبن الأبيض فتشهب وتكون يابسة قال : فلا يزال يعبد ذلك المكان حتى يرتحل عنه ؛ لأن العرب كانوا في الجاهلية يقطنون في الصيف في مكانهم حيث الكلأ والعشب يقطنون عند موارد الماء فهذه عبادتهم حتى يرتحلواْ ، فلما جاءهم داعي النبي ﷺ آمنوا به ، وهذا يدل على أنهم بلغوا في جاهليتهم حضيضاً دانياً فهؤلاء منهم من وضع الأصنام فعبدها لأنها رمز لهذا الصالح الذي اعتقد فيه ، ومنهم من تطور به هذا الشر حتى اعتقد النفع والضر في الحجر .

أحدهم اتخذ حجراً اتخذه رباً فجاءه يوماً وإذا هذا الثعلب على ربه يتبول ، فقال :

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه

لقد هان من بالت عليه الثعالب

فهُدي بهذا إلى التوحيد والإيمان بالله عز وجل .

وآخر يتخذ إلهه من التمر يعجنه ويعبطه ويشكله حتى يكون مثل الصلصال يرسمه فإذا جاع أكله : أكل ربه؟! هذه حالهم قبل بعثة النبي ﷺ فجاء النبي ﷺ فكسر صور الأصنام وصور الصالحين ، فقد جاء داعياً لهم بالتوحيد داعياً إلى أن يفردوا الله بالعبادة ، ولما سأل الحصين والد عمران رضي الله عنهم كم تعبد؟ قال : أعبد ستة آلهة خمسة في الأرض

وواحد في السماء قال: **من تقصده في حاجتك في رغبائك في سرائك** قال: الذي في السماء، قال: **إذن فأفرده بالعبادة**، قال: نعم[1]، لأنها وافقت بداهة الفطرة وبداهة العقل.

تنبيه

إذاً فالأصنام والأوثان من حجارة أو نحوها ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي رموز للصالحين والأولياء، وهذا ما لم يدركه القبوريون الروافض وغيرهم، حيث ظنوا الشرك محصوراً في عبادة الأصنام! وعليها نزَّلوا آيات أحاديث النهي عن الشرك في الكتاب والسنة. وزعموا أن المقامات والأضرحة مشروعة لأنها خارجة عن معنىٰ الأصنام، وهذا غلط عظيم وجهل خطير بالتوحيد وأدلته في الوجهين، قامت عليه أكثر شبههم في توحيد العبادة.

وسيظهر لك هذا الغلط في تفهم شبهاتهم التي كشفها الشيخ المجدد ـ رحمه الله ـ في رسالته هذه، فليتنبه لهذا المسلم وليراعه طالب العلم فإنه مفيد جداً، يفيده ويعينه في جدال المشركين وإبطال شبههم، وليتدبره!!

(١) رواه الترمذي في الدعوات (١٠) عن أحمد بن منيع، عن أبي معاوية، عنه به، وقال حسن غريب، وانظر تحفة الاشراف ص١٧٥ .

قال رحمه الله تعالى: (وآخر الرسل محمد ﷺ وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين، أرسله إلى قوم يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً).

هذه مقدمة في حال العرب مع جاهليتهم الجهلاء فإنهم لم يكونوا خالين من مظاهر العبادة، بل كانوا يصلون ويحجون ويتصدقون ويُعظمون الله ويُعظمون حرمه ويتعبدون لله جل وعلا، فما كانوا خلوا عن العبادة لكنهم كانوا على انحراف خطير في أصل العبادة، وذلك بصرف نوع من العبادة أو أكثر، كأن يذبح أحياناً لله لغير الله وسائر ذبحه لله، أو يدعو ويستغيث أحياناً بغير الله وسائر حاله دعاء الله والاستعانة به. . . ! ولهذا لو قلت لك هل كان العرب ليست لهم عبادة؟ الجواب: لا، بل كانوا يعبدون الله جل وعلا، ويُعظمونه ويحجون بيته ويتصدقون ويُصلون، ويُعظمون حرماته؟

وهذه مقدمة افطن لها لأنه سيأتيك مشرك قبوري وعابد مقام وضريح يُقدم قرابين لهذا الضريح أو يطوف به أو يدعوه، ويقول لا إله إلا الله، فما الفرق بينه وبين العربي في جاهليته؟ وما الفرق بينه وبين أهل مكة في الجاهلية؟ الجواب: لا فرق؛ لأن أهل مكة يعظمون الله جل وعلا ويعظمون الحرم حتى إن الرجل من العرب كان إذا وجد في الحرم قاتل أبيه، وقاتل أخيه لا يُهيجه؛ تعظيماً لحرم الله جل وعلا، بل إذا وجده في الأشهر الحرم في أي مكان لا يُهيجه ولا يصيب منه تعظيماً لهذا الزمان من تعظيمهم للحرمات، وإذا أرادوا قتل أحد خرجوا به خارج

الحرم، بل كانوا إذا جاءهم مظلوم انتصروا له حتى ولو من أنفسهم[1]، وهذا مما جاء به النبي ﷺ، لكنه حذرهم من الشرك. وكانوا يحجون وكانوا لا يطوفون بالبيت بثياب عصوا الله فيها، ولهذا إن كان لأحدهم أحد أو صديق من أهل مكة يُعطيه ثياب طاف بها وإلا طاف عُرياناً، فإن أهل مكة يُقال لهم «الحمس» وهم يطوفون بثيابهم وإنما الذي يتجرد من ثيابه هو الأفقي إن لم يجد من يعيره ثيابه من الحمس! وهذا من الازدواج والتناقض، وذلك أنهم في هذه الأمور يُشدّدون في المعاصي وفي التوحيد يتهاونون؟! حتى إن المرأة قد تطوف عريانة وتبقى سيوراً على عورتها إذا لم تكسها أختها من أهل الحرم ولهذا قالت المرأة في الجاهلية:

اليوم يبدو بعضهُ أو كلُّه

وما بدا منه فلا أُحلُّه

فهي طافت بالبيت عُريانة، ولهذا امتنع النبي ﷺ أن يحج على الفور لما فرض الله عليه الحج في العام التاسع لوجود مظهر الشرك ومظهر الفسوق ولهذا أناب عنه من يحج بالناس أفضل الصحابة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ثم أردفهُ بعلي وأبي هريرة رضي الله عنهما يصيحان بالناس: «**أن لا يحج بعد العام مشرك وأن لا يطوف بالبيت عريان**»[2]،

(١) كما في حلف الفضول الذي تصدوه في الجاهلية قبل البعثة، ودعا إليه عبدالله بن زيد بن جدعان من بني تيم من قريش، وحضره النبي ﷺ قبل مبعثه بنحو خمس سنين.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب: ما يستر العورة (الحديث ٣٦٩)، وأخرجه مسلم في كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان يوم

وفيه أنزل الله قوله جل وعلا ﴿**يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد**﴾ (الأعراف : ٣١)، فهؤلاء كانوا يعبدون الله ويوحدونه في أنواع من العبادة لكنهم أشركوا في غيرها والعبادة لا تكون صحيحة إلا إذا كانت خالصة من الشرك في جميع أنواعها. وقسْ هذا على أهل زماننا يتضح لك أنهم متساوون فيما هم فيه من الشرك؛ في مشركي زماننا مع المشركين السابقين من حيث صرف العبادة أو بعضها لغير الله، مع زيادة مشركي زماننا عليهم في الشرك في الربوبية في حالي السراء والضراء!

الحج الأكبر (الحديث ٣٢٧٤)، وأخرجه أبوداود (الحديث ١٩٤٦)، وأخرجه النسائي (الحديث ٢٩٥٧)، تحفة الأشراف (٦٦٢٤)

قال رحمه الله (ولكنهم يجعلون المخلوقات وسائط بينهم وبين الله. يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله ونريد شفاعتهم عنده مثل الملائكة وعيسى ومريم وأُناس غيرهم من الصالحين فبعث الله محمداً ﷺ يُجدّد لهم دين أبيهم إبراهيم ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله لا يصلح منه شيء لا ملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلاً عن غيرهما، وإلا فهؤلاء المشركون مقرون يشهدون أن الله هو الخالق الرزاق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيها كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره).

لقد كان المشركون ومنهم أهل مكة يعبدون الله ويوحدونه، وكانوا مُقرِّين بتوحيد الربوبية يعتقدون أن الخالق واحد هو الله، وأن الرازق واحد، وأن المحي واحد، وأن المميت واحد، وأن المتصرف في كونه واحد، لا يعتقدون أن هناك متصرف غيره وبهذا يظهر الفرق بين المشركين الأولين وبين غُلاة المشركين المعاصرين الذين يدَّعون أن لصالحيهم وأن لمقربيهم تصرفات في العالم وفي الكون وهذا شرك في الربوبية! وأولئك المشركون الأولون ما أشركوا مع الله في الربوبية؟! فانظر إلى الفرق بين مشركي زمننا والمشركين الأولين! واعجب لذلك؟! هذه **المسألة الأولى**. .

المسألة الثانية: أن مشركي العرب كانوا يشركون مع الله أناساً صالحين:

إما ملائكة أو أنبياء أو رسل أو أولياء، الملائكة مثل: جبريل، والأنبياء مثل: عيسى وعُزير ودانيال ويونس، وكانوا يشركون في صالحين مثل مريم وودٍّ واللات... إلخ، أما مشركو زماننا فقد يشركون بمن هو طالح فاسق فاجر والعياذ بالله، وقد يُقيم الضريح على جسم حمار أو كلب ويلبس على الناس أنه قبر رجل صالح، ألاحظتم أيها الأخوة الفرق بين هذا وهذا؟!، ولهذا ساق الشيخ لكم أن هؤلاء شركهم في أنهم تقربوا إلى هؤلاء الصالحين بأنواع من العبادات منهم من كان يعبد الجن خوفاً منهم قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) ﴾[1]، فقد كان ينزل أحدهم إلى المكان يقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهائه، وهذا شرك في الاستعاذة، المقصود أن جنس شركهم في الصالحين وجنس شركهم في توحيد العبادة في الألوهية.

وأما في الربوبية فهم موحدون مُقِرُّون لله بالربوبية، ولهذا ساق الشيخ في هذا المقام آيتين من القرآن: آية سورة يونس، وآية سورة المؤمنون قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) ﴾[3]، فهم مقرون بأن الله

(١) الجن الآية (٦). (٢) يونس الآية (٣١). (٣) المؤمنون الآيات (٨٤ ـ ٨٧).

هو الذي يخلقهم ويرزقهم ويحييهم ويميتهم، ولكن شركهم في العبادة في التقرب في الاعتقاد، شرك الاعتقاد: أن يعتقد أن هذا ينفعه عند الله ولو لم يقع هذا في الشرك لكان مشركاً في اعتقاده، وأعظم منه أن يعتقد أن هذا مؤثر يؤثر في الكون في العالم، يعلم الغيب.. وهذا شرك في التأثير وهو شرك في الربوبية، وهو أقبح من الشرك في العبادة وكلاهما قبيحان!

وشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب نبَّه على الفرق بينهما مراراً ومن مواضع هذا التفريق الشهيرة ما ذكره في نواقض الإسلام العشرة، فالناقض الأول في شرك الربوبية، والثاني في شرك الوسائط، والله المستعان.

قال رحمه الله (فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون لله هذه الشهادة فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١)﴾ (يونس: ٣١) وقوله: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧)﴾ (المؤمنون) وغير ذلك من الآيات.

فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا، ولم يدخلهم في التوحيد الذي جحدوه وهو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا: الاعتقاد، كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلاً ونهاراً.

ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا له، أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللاَّت، أو نبياً مثل عيسى. وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (١٨)﴾ (الجن) وكما قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ (الرعد: ١٤) وتحققت أن رسول الله ﷺ إنما قاتلهم ليكون الدعاء كله لله والنذر كله لله والذبح كله لله والاستغاثة كلها لله وجميع أنواع العبادة كلها لله. وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة والأولياء يريدون

شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم. عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون وهذا التوحيد هو معنى قولك: لاإله إلا الله. فإن الإله عندهم هو الذي يُقصد لإجل هذه الأمور سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو شجرة أو قبراً أو جنياً لم يريدوا أن الإله هو الخالق الرازق المدبر فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده، كما قدّمت لك وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ «السيد».

فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي: لا إله إلا الله، والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها. والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلق والكفر بما يعبد من دون الله والبراءة منه فإنهُ لما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله قالوا: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ (ص: ٥) فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفرة. بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير إعتقاد القلب لشيء من المعاني. والحاذق منهم يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر الأمر إلا الله، فلا خير في رجل جُهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله.

إذا عرفت ما قلت لك معرفة قلب، وعرفت الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (النساء: ٤٨)، وعرفت دين الله الذي أرسل به الرسل من أولهم إلى

آخرهم، الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه. وعرفت ما أصبح غالب الناس فيه من الجهل بهذا.

أفادك فائدتين: الأولى: الفرح بفضل الله ورحمته كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ (يونس) وأفادك أيضاً الخوف العظيم. فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذر بالجهل. وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله تعالى كما يظن المشركون.

خصوصاً إن ألهمك الله ما قص عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم، أنهم أتوه قائلين: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ (الاعراف: ١٣٨) فحينئذ يعظم حرصك وخوفك على ما يخلصك من هذا وأمثاله.

واعلم أن الله تعالى بحكمته لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام: ١١٢) وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ (غافر: ٨٣) إذا عرفت ذلك وعرفت أن الطريق إلى الله لابد له من أعداء قاعدين عليه أهل فصاحة وعلم وحجج، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحاً تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدمهم لربك عز وجل: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ

خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾ ولكن إذا أقبلت على اللَّه وأصغيت إلى حججه وبيّناته فلا تخف ولا تحزن ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ (النساء: ٧٦).

قال المصنف ـ رحمه الله ـ : فإذا تحققت: إذا تحققت أنهم كانوا مقرين بالربوبية! وإقرارهم بالربوبية لم يدخلهم في الإسلام، بل حاربهم النبي ﷺ وكذّبهم وكفّرهم، وتحققت أن الذي جحدوه هو ما دعاهم إليه النبي ﷺ، وهو إفراد الله بالعبادة: وهو توحيد العبادة، إذا تحققت من هذا عرفت الشرك الذي يسميه الناس في زمانه ـ أي زمان الشيخ ـ بالاعتقاد في السادات والأولياء والصالحين والأنبياء وغيرهم أنهم ينفعون عند الله وأنهم وسائط بيننا وبين الله جل وعلا (**فهذه المقدمة مهمة لكشف هذه الشبه**) لأن صاحب هذه الشبه يقول بأن التقرب بالذبح أو بالدعاء أو بالاستغاثة بالسادات أو بالأولياء ليس شركاً ولا يخرج من الملة ولا يحلّ الدم والمال. . . إلخ.

والشيخ يقرِّر عليهم ويقول: ما الفرق بين هذا وبين شرك الأولين: شرك العرب؟ لا فرق بينه لمن عقل وفهم التوحيد الذي جاء به النبي والأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام، وعرف ما نهوا عنه من الشرك، ولم يعاند ولم يكابر. فهؤلاء محتاجون أصلاً لمعرفة التوحيد الذي جاء به الأنبياء وآخرهم محمد ﷺ هذا **أولاً**.

وثانياً: هم محتاجون لمعرفة ما هذا الشرك الذي حاربه الرسل وآخرهم محمد ﷺ وحاربوا أهله وحذروا منه ومنهم.

وكلا الأمرين: معرفة التوحيد ومعرفة الشرك مهمان ومتلازمان فإنه فلا يتحقق أحدهما إلا بتحقيق الآخر.

حيث قد يعرف التوحيد ولكن لا يحققه لله عز وجل بجهله بالشرك القادح في التوحيد.

مثاله :

من عرف وجوب العبادة لله وحده دونما شريك. ولم يتحقق أن التوسل بغير الله بسؤالهم الشفاعة والاستغاثة بهم شرك يقدح في أصل الدعاء والسؤال الذي هو نوع من أنواع العبادة، فعدم تحقيقه علماً وعملاً يوقعه في اللبس وعدم اعتباره شركاً قادحاً في التوحيد.

والسبب عدم تحقيق علم التوحيد الذي بعث الله به رسله - عليهم الصلاة والسلام - ومعرفة الشرك الذي نهوا عنه، فهذا مقصد عظيم قرره الشيخ في هذه المقدمة!!

فأنت أيها المسلم، ويا طالب العلم إذا عرفت التوحيد المطلوب، وتحققته، وعرفت الشرك وفهمته، علمت ما يقع به الناس من التوحيد أو الشرك.

قال رحمه الله (والعامي من الموحدين يغلب ألفاً من علماء هؤلاء المشركين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ (الصافات).

فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما هم الغالبون بالسيف والسنان، وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح).

هذا الذي أشار إليه شيخ الإسلام أمرٌ واقع، وحقيق، وملموس أيضاً، أن العامي الذي حقّق لله جل وعلا التوحيد يغلب ألفاً من علماء السوء وعلماء الشرك فَلِمَ؟

لأن معه من الله تأييد، ومعه من الله برهان، وهو من جند الله، والله جل وعلا تكفل بنصر جنده **﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾** (الصافات) وقال تعالىٰ: **﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾** (الحج) فجند الله هم الغالبون فإن لم يكن أهل التوحيد وأهل الإيمان هم جند الله فمن جند الله إذن؟!!

وعلماء المشركين الذين أوتوا علوماً وكتباً وتآليف جبناء مع الحق؛ لأن الحق مستقر والباطل مزهوق، كما قال سبحانه في آية الإسراء **﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾** (الإسراء) وهذا الكلام والتقرير في عرض أمثلته يطول. ومظانه كتب السير والتأريخ في التراجم ولا سيما تراجم علماء العقيدة الصحيحة وعلماء التوحيد من

السلف والخلف، وسير أئمة التوحيد والعقيدة بصبرهم وجهادهم وغيرتهم على دين الله.

لكن أسوق لكم حادثة وقعت في مكة في هذا العصر، أسندها عن شيخنا محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ حيث رآها ونقلها لنا.

حادثة تُبين أنَّ العامي من الموحدين يغلب رؤوس المشركين

حادثة تبين أن العامي من الموحدين يغلب الرؤوس من المشركين

حدثنا بها شيخنا الشيخ محمد ابن عثيمين رحمه الله وهي قريبة من وقتنا هذا، وهي مفيدة في هذا الباب: حدّثنا رحمه الله عن رجل من رجال الهيئة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالحرم من رجال الحسبة، كان واقفاً بجوار المقام: مقام إبراهيم عليه السلام، وهذا يقول الشيخ: أنا رأيت هذا بعيني في الضحى وكان هذا الرجل قصيراً نحيفاً من أسرة علمية مباركة لكنهُ كان عامياً موحداً، يقول: فجاء رجل من ذوي العمائم من العجم: رافضي فأخذته عاطفته الشركية فجعل ينادي بمكانه عند المقام: يا حُسين يا حُسين، يستغيث به، والناس يسمعونه، يقول شيخنا: فأخذ الرجل المحتسب ـ وهو من رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحرم المكي ـ بتلابيب ذلك الرجل فجمع عليه ثيابه وهو قصير نحيف وذلك الرجل ـ صاحب العمامة ـ ضخم وعظيم الهيئة وكأن هذا الرجل مع هذا كطفل صغير مع أبيه، أو كحوار ناقة مع أمه، وإذا هو يسحبه من عند المقام إلى مشاية باب الملك عبدالعزيز، إلى أن أخرجه من باب الملك عبدالعزيز، والأصل الرافضي منقاد له غير معاند، وهو يقرأ قول الله جل وعلا من سورة التوبة ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ (التوبة: ٢٨) يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: هذا رأي عيني، وكنتُ كلما رأيته ـ أي هذا المحتسب ـ ذكَّرته بهذا الأمر وقد توفي رحمه الله، توفي الناقل والمنقول عنه رحمهم الله جميعاً.

هذا شاهد على ما أشار إليه الشيخ أن العامي الموحد يغلب ألفاً من

علماء المشركين لأنهم هباء لا شيء، إنما هيكل ومنظرة، أما في الحقيقة فلا حجة ولا برهان، أما أهل التوحيد معهم تأييد رب العالمين، ومعهم فطرة سليمة، ولهذا العامي الموحد في كل زمان ومكان يثبت في قوله وفعله ومبدئه وعقيدته، إذا كان صادقاً في إيمانه ثابتاً فيه. فتمسك بهذا الأصل، وحققّه فإنه مفيد عزيز جداً! هذه غلبة بالقوة - وهناك مثال بالحجة في قصة ذكرها الشيخ: عبدالله بن عبدالرحمن أبو بطين رحمه الله في «ردّه على ابن جريس». قال إن رجلاً عالماً من أهل الطائف التقى بعامي من أهل نجد، فقال الطائفي للنجدي: أنتم تحتقرون الأولياء والشهداء. والله تعالى يقول: ﴿ **ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾. فقال العامي النجدي: هل قال الله: ﴿ **يُرْزَقون** ﴾ أو قال ﴿ **يَرْزُقُون** ﴾ فقال الطائفي: بل قال: ﴿ **يُرْزَقون** ﴾ قال العامي النجدي: ما دموا يُرْزَقُون. فأنا أسأل الذي رزقهم أن يرزقني - فقال الطائفي: ما أكثر حجاجكم يا أهل نجد![1]

---

(١) انظر تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جريس، ص ١١١ وما بعدها. وداود هو ابن سلميان بن جريس صوفي نقشبندي (١٢٣١ - ١٢٢٩هـ)، وقد رد عليه في شبهاته ثلاثة من أئمة الدعوة وهم: ١ - الشيخ المجدد الثاني: عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب (١١٩٣ - ١٢٨٥هـ)، ورده هو: «القول الفصل النفيس في الرد على المفتري داود بن جريس»، وربما سُمِّي بنحو هذا الاسم بعض المطبوعات. ٢ - الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن أبا طين (١١٩٤ - ١٢٨٢هـ) مفتي الديار النجدية في كتابه «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جريس، وللشيخ أبا بطين ردٌّ آخر مخطوط اسمه «الانتصار على داود بن جريس». ٣ - الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن (١٢٢٦هـ) مفتي الديار النجدية في كتابه «منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جريس».

قال المصنف رحمه الله (وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح)

انتبه أيها المؤمن، فالخوف على الموحد الذي يسلك الطريق فعنده توحيد وعنده عقيدة وعنده تصفية لهذا الإيمان ومحقق التوحيد لله لكن ما عنده سلاح! ما عنده علم! هذا الذي يُخاف عليه، حيث تأتيه شبهة فتقلب هذه الأصول عنده إلى أمور مشكوكة والعياذ بالله قد يضلُّ بها، إذاً الشأن مع التوحيد، العلم بدلائل هذا التوحيد وأدلته وبراهينه وكشف شبه أصحاب التشبيه والتشكيك وأصحاب الأهواء.

قال رحمه الله (وقد من الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾ (النحل) فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها. كما قال تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئنك بالحق وأحسن تفسيرا﴾ (الفرقان...) قال بعض المفسرين: هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة).

وهذا القول ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره أنها عامة في كل حجة يُدلي بها المبطل إلىٰ يوم القيامة أن في القرآن كشفها، وإنما الشأن فيمن يفهم، ويستنبط ويُحسن الاستدلال بأدلة القرآن، وهذا لايتأتىٰ إلا بعد طول ممارسة ومدارسة وعلم بهذه الأصول: أصول التوحيد، أصول تلقي العلم وفهمها، وبالتالي تنكشف عنده شبه وباطل المبطلين، ولهذا غالباً أن ذوي الشبهات إنما يستطيلون علىٰ قليلي العلم وضعاف البصيرة، الصغار سناً أو علماً، فيستطيلون عليهم بأهوائهم وشهواتهم، أما طلبة العلم المحققون أو العلماء المحررون في علمهم فهؤلاء لا سبيل إلىٰ ذوي الشبهات عليهم أبداً سواء كان في التوحيد، أو في فروع الشريعة.

قال رحمه الله (وأنا اذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا. فنقول: جواب أهل الباطل من طريقين مجمل ومفصل. أما المجمل، فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها وذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذي أنزلَ عَلَيْكَ الْكتَابَ منْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكتَاب وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ منْهُ ابْتغَاءَ الْفتْنَة وَابْتغَاءَ تَأْوِيله وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٧).

الآن دخول إلى مقصود المؤلف في كشف الشبهات، وذلك أن ذوي الشبهات لهم جوابان:

1- مجمل.

2- ومفصل.

الجواب المجمل: خلاصة مقصده: وهو أنه إذا جاءك القبوري، أو المشرك، أو من يدعو غير الله جل وعلا، أو يصرف له أنواعاً من العبادة يريد أن يصوب ما هو عليه ويبرر حاله فأتاك بأدلة وجاءك بنصوص يريد أن يستدل بها ويلبس عليك فقل: أنا لا أعرف ما تقول بهذا القول، أنا عندي قواطع أبني عليها، وأنا أعرف أن الله جل وعلا ذكر لنا من يلوي لسانه بكلام الله ليوافق مذهبه، يلوي أعناق النصوص ليوافق قوله، وقد حذرنا من هؤلاء كما في أول آل عمران: **﴿هُوَ الَّذي أنزلَ عَلَيْكَ الْكتَابَ منْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكتَاب وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ**

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧)﴾ (آل عمران : ٧) .

فأنا لا أدعُ المحكم الذي عندي لأجل المتشابه، وهذا جواب مجمل ينفع مع كل ذي شبهة، ولا تكن إمعة رخواً خفيفاً أينما نُقلت انتقلت، وكيفما حُوِّلت تحوَّلت، ما دام أنك أخذت اعتقادك عن علم ويقين فاثبت عليه! ولا تنتقل عنه إلا بشيء مثله بالوضوح أو أوضح منه، وهذا يا أيها الإخوة في كل أمر، وهو في العقيدة أولى، لا تنتقل عن اليقين إلا عن يقين واضح، وبدليل : بصحة استدلال أو بصحة تعليل .

أما مجرد شبهه فتصير مثل المنبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . وهذا هو المنبت الخفيف المرجوج، أما الراسخ الثابت العاقل البصير فتجده أمهل الناس عند الشبهات، وعند الفتن فتنبه!

والوقوف على قوله تعالى : ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله**﴾ كما في المصاحف التي بين أيدينا وقف لازم، وعيب على من لا يقف!، لأن الواو بعدها في أشهر أقوال أهل العلم استئنافية ﴿**والراسخون في العلم يقولون آمنا**﴾ .

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ذكر وجهاً ثانياً أن المتشابه يعلم الله تأويله، ويعلم تأويله الذين أوتوا العلم وهم الراسخون في العلم فيكون الوقف عندئذ وقف مستحب، ولا معيبة على من أتم قراءته ولما

يقف، لأن الراسخ في العلم يعلم تأويل هذا المتشابه يرده إلى المحكم.

لِمَ؟ لأنه بناها على أصل عظيم، وهو أن القرآن ليس فيه متشابه تشابهاً كلياً لا يعرف معناه أحد، وهذا أصل مهم؛ لأن القرآن ما نزل إلا هدى، فلا يشتبه إلا على من لا علم عندهم، على من لم يحققوا العلم فيه، لكنه لا يشتبه على الجميع بل يدريه ويعلمه ويحققه الراسخون في العلم.

قال رحمه الله (وقد صح عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم»).

وهذا في حديث عائشة رضي الله عنها في الصحيحين، تقول رضي الله عنها: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** (٧)﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله، فاحذروهم.[1]

(١) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ١٦٥، ١٦٦)، كتاب التفسير (سورة آل عمران)، ورواه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٥٣ كتاب العلم، والنهي عن الاختلاف في القرآن حديث رقم (٢٦٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال رحمه الله: (مثال ذلك: إذا قال لك بعض المشركين: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ (يونس: ٦٢). أو أن الشفاعة حق، وأن الأنبياء لهم جاه عند الله، أو ذكر كلاماً للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره فجوابه بقولك: أن الله ذكر في كتابه أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه، وما ذكرته لك من أن الله تعالى ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية وأن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ (يونس: ١٨) هذا أمرٌ محكم بيّن، لا يقدر أحد أن يُغير معناه، وما ذكرت لي أيها المشرك في القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يُخالف كلام الله عز وجل).

يعني: كيف أترك آيات التوحيد العظيمة الكثيرة في القرآن الكريم وآخذ بشبهتك التي أدليت بها عليَّ. فطريقة أهل الأهواء: يتركون المحكمات كلها ويبحث عن دليل واحد قد يكون ضعيفاً، وقد يكون محتمل الدلالة يستدل به على باطله، وليس هذا في التوحيد فقط، بل وفي مسائل الإيمان تجدهم فيه يبحثون عن حديث فيه أن ترك العمل لا يؤثر في الإيمان!! فكيف نصنع بالنصوص الأخرى الكثيرة التي حتمت العمل، والتي بلغت مبلغ التواتر ما نصنع بها؟! أأتركها لأجل حديث واحد محتمل الدلالة أو ضعيف الدلالة؟ أو ضعيف السند، هذه هي طريقة أهل الأهواء! فإن رضخت لهم دّل على نقص علمك ونقص

فقهك وعدم رسوخك فيما اعتقدت، بل ويدل ذلك على نقص عقلك وإدراكك. وإن رددت كلامه إلى هذا الأصل سلمت بنفسك وأسلمت لله رب العالمين.

إذاً عندك قواطع النصوص لا يناقض بعضها بعضاً ولا يعارض بعضها بعضاً ولا تتخلف، أما ما جئتني به فلا أفهمه ولا أدرك ما تريد من الشبهة فما أترك ما أنا عليه من أمر قاطع لأمر مشتبهٍ فيه، ومعلوم أن الشك يرجع إلى اليقين، فالشك لا يزول بشك مثله وإنما يزول باليقين، فهذه قاعدة عظيمة من قواعد الشريعة الغراء، وهذا أصل عظيم في هذا الباب، قل: أعتقد أن كلام الله لا يتناقض ولا يتعارض وأن كلام الله حق، أما الذي أتيت به فأنا ما فهمته، وما عرفته وهذا الجواب جواب محكم فرددت أمرك إلى الإحكام لا إلى التشابه.

قال رحمه الله: (وهذا جواب سديد ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله فلا تستهن به فإنه كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾ (فصلت)

وهذا يجعلك يا أيها الموفق، إذا أُدليت عليك الشبهة سواءً في الفتن، أو في المحن، أو في التحزبات، أو في أمور العقائد: في الإيمان، وفي توحيد العبادة، وفي الأمور العملية، يكون هذا مسلكك، وتنطرح بين يدي الله جل وعلا أن يردك إلى الحق وأن يرشدك وأن يسدّدك، ولا تستقل برأيك أو تعول على فهمك وفهم جماعتك، لا! بل كُن مع الله جل وعلا سائلاً إياه أن يهديك ولهذا نُكّرر الفاتحة ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)**﴾ (الفاتحة) في كل ركعة؟ نسأل الله أن نثبت على هذا الدين وأن يهدينا لما ضل عنه غيرنا ولهذا قال:

ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله فلا تستهن به كما قال تعالى: ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)**﴾ (فصلت) فبصبرهم حصّلوا هذا الفضل العظيم، وما يُلقَّاها إلا ذو حظ عظيم هذا يقتضي منك أن تبحث عن مقومات هذا الصبر ومقومات هذا الثبات بالانطراح بين يدي الله جل وعلا وبالثبات والرسوخ، إن سكرة الشباب وبعض طلاب العلم، كثرت التنقلات عندهم في كل يوم لهم جادة ومنهج وطريق! وهؤلاء ما أسهل أن يضلوا وينتكسوا! لِمَ؟ لأن منهجهم غير راسخ، كذلك في باب العلم الشرعي ما أسرع ما تأتيه شبهة فتضله.

انظر إلىٰ إخوانك الذين كانوا معك في سبيل الاستقامة والهداية أو في حال الطلب للعلم، كانوا علىٰ حال ثم أصبحوا علىٰ حالٍ أخرىٰ، نعم أنت وُفقت إلىٰ الآن ما انحرفت لكن اثبت، ابتغ الأسباب في الثبات ولزوم طريقة أهل الثبات علىٰ الدين بالمحكمات بطريقة أهل العلم بالرسوخ، وأحذر بُنيات الطريق واحذر الشبهات واحذر الأهواء لئلا تضل كما ضلوا لأن الذين ضلوا وإنما ضلو لأنهم يعتقدون أنهم علىٰ حق وهذا معنىٰ قول الله جل وعلا ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا** ﴾ (فاطر: ٨) يظن أنه مصيب وفي الحقيقة هو سيء العمل كيف عرفنا أنه سيء؟ بميزان الكتاب والسنة بميزان العلم بميزان طريقة السلف ﴿**فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** (٨)﴾ (فاطر: ٨) هذا أصل سواء في أهل الإيمان أو في ضعاف الإيمان أو من تنكبوا هذا الطريق إلىٰ طريق أهل الاهواء والبدع والشبهات والتحزبات والقيل والقال أو من انتكس عن دين الله، فكان بعد أن كان متديناً مستقيماً رجع إلىٰ أن كان منحلاً مفرطاً، والـمُثبَّت من ثبته الله جل وعلا نسأل الله الثبات علىٰ دينه وأن لا يضلنا بعد إذ هدانا: ﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** (٨)﴾. (١)

(١) سورة آل عمران الآية (٨).

قال رحمه الله: (وأما الجواب المفصل: فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة على دين الرسل، يصدون بها الناس عنه: منها قولهم: نحن لا نشرك بالله، بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن عبدالقادر أو غيره، ولكن أنا مذنب، والصالحون لهم جاه عند الله وأطلب من الله بهم. فجاوبه بما تقدم وهو أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بما ذكرت، ومقرون أن أوثانهم لا تدبر شيئاً وإنما أرادوا الجاه والشفاعة، واقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضحه.

هذه أول شبهة سيكشفها الشيخ في كشف الشبهات ، وهي نحو ثلاث عشرة شبهة ، ثلاثة منها هي الرئيسية التي يكثر ذكرها من أولئك . هذه أولها :

١ـ الشبهة الأولى:

وهو قولهم : (نحن لا نشرك بالله بل نعتقد أنه لا يخلق ولا يرزق إلا الله وحده)، هذه الشبهة تفيد أن صاحبها وملقيها! ما عرف التوحيد الذي جاءت به الرسل ؛ لأنه قال : نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق إلا الله هذا هو توحيد الربوبية وهذا هو الذي قاتل النبي ﷺ الكفار مع أنهم أقروا بالربوبية لكن ما نفعهم إقرارهم بها وحدها ، إذن هو ما عرف الشرك وما عرف التوحيد! فهذه الشبهة وما أكثر ما نسمعها من هؤلاء وأمثالهم ، بل

إن من طاوعهم على هذه الشبهة قادتهم إلى أن أشركوا بالربوبية؛ لأن هؤلاء المعتكفين عند المقامات والأضرحة المتعلقين بالأنبياء والصالحين اعتقدوا فيهم الآن فيهم التأثير والنفع والضر والتصرف في الكون بعد ما كانوا يعتقدون أنهم مجرد وسائط إلى الله، ويعترفون أن المقصود وهو الله، والنافع الضار المؤثر المتصرف هو الله، لكنهم مع تطاول المدة وعدم الإنكار بلغوا هذا الحدّ، وانتقلوا من الشرك القبيح في العبادة إلى ما هو أقبح منه الشرك في الربوبية.

وقوله (**واقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضحه**) يعني الآيات التي جاءت أن هؤلاء أقروا بذلك مثل قوله تعالى: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ**﴾ (الزمر: ٣) وقوله سبحانه: ﴿**هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ**﴾ (يونس: ١٨)، يقولون المقصود هو الله لكن هؤلاء وسائط يشفعون لنا وضَّح له هذه الآيات فهمها إياه، الحجة لا تقوم إلا بفهم لها يعرفها وليس مجرد أن يرددها من غير إدراك لمعانيها.

قال رحمه الله: (فإن قال هذه الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام، كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام، أم تجعلون الأنبياء أصناماً؟ فجاوبه بما تقدم).

---

٢ ـ **وانتبه إلى هذه الشبهة الثانية وهي ناشئة من الجهل** بالشرك! فلم يعرفه ولم يحقِّقْه، وذلك أن أولئك المشركين في الجاهلية ما عبدوا أصناماً أحجاراً لذاتها إلا لأنها رموز إلى أقوام ورجال صالحين؛ وليست هي المقصودة بالتعظيم والعبادة لذاتها، بل لكونها رموزاً لأولئك؟! كما قال عز وجل: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)**﴾ فهؤلاء المبررون من الملائكة والأنبياء والصالحين هذا شأنهم مع الله يبتغون روضانه. كما سيأتي، ومع هذا ما عذرهم ذلك، وهذا من جهلهم بما هو الشرك ظنّوا أن الشرك فقط هو عبادة الاحجار وهذا ظن فاسد، بل الشرك كل من جعل مع الله أحدا: ملك مقرب عظيم أو ذليل صغير أو كبير، أو جليل، أو حقير.

وهذه الشبهة أصل كبير لدى المخالفين من الروافض والقبوريّة والمتكلمين الذين ظنوا أن الشرك المخرج من ملة الإسلام هو في عبادة الأصنام والأحجار وفي اعتقاد التأثير في الصالحين مع الله، أما اتخاذهم إلى الله وسائل ووسائط تقرب إليه فهو التوحيد عندهم ولدى أمثالهم، في تغافل وتجاهل عظيمين لقوله تعالى في أول سورة الزمر: ﴿**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣)**﴾.

قال رحمه الله (فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله، وأنهم ما أرادوا ممن قصدوا إلا الشفاعة، ولكن أراد أن يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكر فاذكر له أن الكفار منهم من يدعوا الأصنام، ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال فيهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ (الإسراء: ٥٧) الآية، ويدعون عيسى بن مريم وأمه وقد قال الله تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦)﴾ (المائدة) واذكر له قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾ (سبأ) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ (المائدة) فقل له: أعرف أن الله كفَّر من قصد الأصنام، وكفَّر أيضاً من قصد الصالحين وقاتلهم رسول الله ﷺ).

يعني أولئك المدعوين أي الذين يدعون المشركين من دون الله من الأنبياء ومن الملائكة ومن الجن ومن الصالحين يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة ـ وهي التقرّب والقربىٰ ـ أيهم أقرب! ولهذا يوم القيامة يتبرئون من دعوة هؤلاء كما تبرء عيسىٰ ـ عليه الصلاة السلام ـ ممن اتَّخذه وأمه آلهين، كما

تتبرأ الملائكة ممن عبدهم ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ (سبأ : ٤١)، **(وقل له عرفت أن الله كفَّر من قصد الأصنام وكفَّر أيضاً من قصد الصالحين)** فهم ظنو أن التكفير لمن قصد الحجارة ومعلوم أن الأصنام ما قُصدت لذاتها ولكن لأنها رموز عن أولئك الصالحين، ولهذا حُرم التصوير لأنه وسيلة إلى الشرك.

ولهذا فالتصوير جاء الوعيد والتشديد في تحريمه لأنهُ وسيلة وذريعة إلى الشرك، وبه حصل أول شرك في بني آدم سواءً نحتاً أو رسماً باليد الذي يُسمى الآن: (الفن التشكيلي) أو تصوير بالكاميرات والآلات ثم تُعظم في المجالس والمنتديات والنوادي وغيرها. فإن هذا وإن لم يعبده ويعتقد فيه صاحبه في الوقت الحاضر، لكن يكون ذريعة إلى هذا التعظيم.

٣ . قال رحمه الله: (فإن قال: الكفار يريدون منهم، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار المدبر، لا أُريد إلا منه والصالحون ليس لهم من الأمر شيء، ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم فالجواب: أن هذا للكفار سواءً بسواء واقرأ عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (الزمر: ٣) وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٨).

---

٣ ـ هذه الشبهة الثالثة

فالشبهة الأولى : يقول : أنا ما أشركت! أنا أعتقد أن الله هو الخالق الرازق ، **والشبهة الثانية** يقول : أن هذه الآيات نزلت فيمن عبد الأصنام وأنا لاأعبد الأصنام ، أنا أتقرب إلىٰ الله بهؤلاء الصالحين؛ بجاههم وبقدرهم ، فهذه **الشبهة الثالثة** يقول : إن الكفار يُريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار ، فلاحظوا أنه رجع إلىٰ توحيد الربوبية .

وهذا من الجهل الذريع بهذه الكلمة ، كلمة التوحيد لا إله إلا الله ، ولهذا الشيخ المجدد رحمه الله دندن كثيراً حول بيان هذه الكلمة ، فليس معناها : لا نافع لا ضار لا خالق إلا الله ، وإنما معناها : لا معبود بحق إلا الله! وهذه مشكلة عظيمة وواقعة ، وهذا المفهوم التبس علىٰ كثير من بلاد المسلمين خصوصاً المراكز العلمية الشهيرة والجامعات الشهيرة لدىٰ المسلمين! حيث يدرِّسون الناس التوحيد بأن معناه : معنىٰ لا إله إلا الله : لا خالق لا رازق إلا الله كما عقيدة علماء الكلام والصوفية التي

يسمونها: التوحيد (وأنا أذكر أنه جاءنا مدرس بلغ أعلىٰ الرتب الجامعية (أ. د) أستاذ دكتور «برفسور» في تخصص العقيدة والفلسفة والطلاب كما تعرفون يحبون أن يباحثوا أساتذتهم؛ فسألناه عن معنىٰ: لا إله إلا الله؟ قال: الله!! كل الناس يعرفون معنىٰ لا إله إلا الله معناها: لا نافع لا ضار لا خالق إلا الله. فهل هذا معنىٰ لا إله إلا الله؟؟! الجواب: قطعاً لا! لأن هذا الذي أقرَّ به المشركون ولم يؤمنوا، فهم جهلوا هذه الكلمة، وبالتالي ترتب علىٰ جهلهم بها أن وقعوا بالشرك يظنونه إيماناً وتوحيداً. إذنْ هذه الشبه الثلاث هي أعظم ما عليه شبهات أهل الضلال والباطل في توحيد العبادة، ويقود رايتهم في هذا الزمان طائفتان عظيمتان:

٢ ـ الرافضة: وهم حاملوا راية الشرك وعبادة القبور والمقامات والأضرحة والمزارات التي يصفونها بأنها عتبات مقدسة.

٣ ـ الصوفية بفرقهم الكثيرة: نقشبندية، وقادرية، ورفاعية، وشاذلية، وتيجانية، ودسوقية، وبرهانية، وختمية، وعيدروسية... في فرقٍ كثيرة لا أُحصيها لكم في هذا المقام. هذه هي أعظم شبههم: حيث يقولون: أنا ما أشرك لأني أعتقد أن الله هو الخالق الرازق، يقول: أن هذه الآيات نزلت في عُباد الأصنام، يقول: أنا أعتقد أنه لا إله إلا الله وأن النافع الضار هو الله يعني يقول: لا إله إلا الله، يقولها علىٰ غير اعتقاد صحيح فهو يتلفظ بها معتقداً أن معناها لا نافع لا ضار لا خالق لا رازق لا محي ولا مميت إلا الله، وهذه الشبه الثلاث هي أعظم ما يعول

عليه هؤلاء وانظر كيف أن الله كشفها ووضحها وبيَّنها بحقيقة التوحيد، فإن ترسخت من ذلك زالت عندك كل شبهة يُلقيها عليك المخالفون المنحرفون في توحيد العبادة، فتكون راسخاً مثل الجبل؛ فأي شبهة تأتيك لا تبقىٰ بل تزول أمامك بمعرفتك بهذا الكشف الذي كشفه الله جل وعلا من هذه الشبه.

فالعلم بالتوحيد أمرك الله به، وبعث إليك رسله عليهم الصلاة والسلام، دعاة إليه، وأنزل به كتبه، والعلم بالشرك الذي حرّمه الله وعظَّمه وشدَّد النكير عليه وعلىٰ أهله، إذا حققتهما وعرفتهما زالت عندك بعدُ هالات شبههم، فغدت عندك سراباً لا حقيقة، عجاجاً لا شيء تحتها!

قال رحمه الله (واعلم أن هذه الشبه الثلاث هي أكبر ما عندهم فإذا عرفت أن الله وضحها في كتابه، وفهمتها فهماً جيداً فما بعدها أيسر منها).

فالخلاصة أن المقصد الأعظم في تأصيل ردِّ تلكم الشبه والجواب عليها واضح بأمور خمسة رئيسة:

١ ـ أن الله بيَّن التوحيد ما هو؟ وأنه لا معبود بحق إلا الله، وتوحيد هؤلاء هو توحيد الربوبية وهذا أقرت به المشركون. فلا ينفعهم والحالة هذه! قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** (٦٢)﴾ (الحج: ٦٢)!

٢ ـ النبي ﷺ قاتلهم علىٰ جحدهم توحيد العبادة ولم يقاتلهم علىٰ توحيد الربوبية؛ لأنهم مقرون به.

٣ ـ أنه ﷺ قاتلهم وحكم عليهم بالنار لأَنهم لم يُحققوا لله العبادة.

٤ ـ أنهم ما اعتقدوا في آلهتهم النفع والضر وإنما جعلوهم وسائط عند الله شفعاء صالحين.

٥ ـ أن هذه الأصنام كانت رموزاً لصالحين اعتقدوا فيهم الصلاح، فقصدوهم! إذا عرفت هذا وتبيّنته وتحقَّقته فإن ما بعده من الشُبه كُله هين، ولا تهتم به!

قال رحمه الله: (فإن قال: أنا لا أعبد إلا اللّه، وهذا الالتجاء إليهم ودعاؤهم ليس بعبادة. فقل له: أنت تقر أن الله افترض عليك إخلاص العبادة لله وهو حقه عليك، فإنه لا يعرف العبادة ولا أنواعها فبينها له بقولك: قال الله تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) ﴾ (الأعراف).

---

٤ ـ الشبهة الرابعة:

يقول: أنا ما أعبد إلا الله لكن إذا قصدت الصالحين، قصدت عبدالقادر أو محي الدين ـ وهو عند أهل الشام في دمشق، محيي الدين بن عربي الصوفي الخبيث الزنديق، جعلوا له مقاماً يعبدونه من دون الله ـ أو قال قصدت البدوي أو الحسين أو العباس أو غيرهم، فهؤلاء لا أعبدهم، ولكن ألتجأ إليهم لينفعوني عند الله وهذه ليس بعبادة!!

وتقول له: إذن أنت ما عرفت العبادة! فيكون جوابك أنك تُبين له ما هي العبادة؟ لأن العبادة عنده: اعتقاد التأثير، والعبادة عندنا أننا اتخذناهم عند الله وسائط شفعاء بيننا وبين الله. وأنت الآن انتقل معه من الدفاع إلى الهجوم، قل له: أنت بيِّن لي العبادة. يتضح لك أنه جاهل جهلاً مركباً ذريعاً في العبادة، والجهل جهلان: بسيط ومركب، البسيط: هذا صاحبه جاهل وهو يدري أنه جاهل، هذا جهل بسيط يزول بالعلم، لكن الجهل المركب، صاحبه جاهل ولا يدري أنه جاهل:

فـإن كنت لا تدري فـتلك مـصـيـبـةٌ
وإن كنت تدري فـالمصـيـبـة أعظم

هذا هو الجهل المركب.

ويقول ابن القيم (رحمه الله) في الكافية الشافية:

وتعـرَّ من ثوبين من يلبسهما
يلقَ الردى بمذلـةٍ وهوان

ثوبٍ من الجهل المركب فوقه
ثوب التعصّب بئست الثوبان

وتحلَّ بالإنصاف أفخر حلةٍ
زينْت بها الأعطاف والكتفان

وقوله رحمه الله (**وهو حقه عليك فإنه لا يعرف العبادة**) يعني إذا بيَّنت له العبادة ما هي؟ وأنها دعاء الله وقصد القلب وتمحيضه بالعبادة لله جل وعلا وعرفت أن هذه هي العبادة!، فأنت إذا قلت: يا سيدي عبدالقادر اشفع لي عند الله، فأنت بهذا؟ دعوت من؟ دعوت عبدالقادر، ولو كان قصدك الله، لكنك جعلت عبدالقادر! بينك وبين الله واسطة في هذا الدعاء، كما حصل من المشركين لما قالوا: يا لات! يا عُزىٰ! يا مناة! فجعلوهم عند الله وسائط وشفعاء.

وقوله تعالى: ﴿ادعو ربكم تضرعا وخفية إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾ (الأعراف: ٥٥) فيه تحريم الاعتداء في الدعاء، وضابطه الاعتداء عند أهل العلم: أن تسأل الله ما لا يجوز لك شرعاً ولا قدراً.

فهذا اعتداء في الدعاء، فسؤالك ما لا يجوز شرعاً مثل أن تقول: اللهم أعني على الزنا، فهذا لا يجوز؟ هذا اعتداء في الدعاء أو تقول: اللهم اجعلني نبياً من الأنبياء، هذا لا يجوز لأن الله تعالى ختم النبوة بمحمد ﷺ فهذا اعتداء في الدعاء. لأنك سألت الله ما لا يجوز لك شرعاً.

أو تسأل ما لا يجوز لك قدراً، تقول: اللهم اقلبني إلى حمار هذا لا يجوز لأنه اعتداء في الدعاء، والله جل وعلا قد خلقك إنساناً، أو تقول: اللهم اجعلني ملكاً من الملائكة. وهكذا أمثالهما، فتنبه له!

(فائدة)

أما تمني أفاضل الصحابة كالصديق رضي الله عنهم في أن يكونوا حجراً أو طيراً يؤكل، فهذا لأنهم ما دعوا الله بذلك، لكن تمنوا ذلك لتخف عليهم تبعة السؤال والحساب يوم القيامة، وهناك فرق بين التمني وبين الدعاء.

إذن فسؤال الله ما لا يصح لك قدراً أو شرعاً هذا اعتداء في الدعاء والله لا يحب المعتدين، فالاعتداء كبيرة من كبائر الذنوب.

ومن الاعتداء في الدعاء أيضاً أن يدعوا الله بسوء أدب وتكلّف، كأن يقول: اللهم إني أسألك القصر الأحمر الذي عن اليمين، داخل الجنة؛ هذا سوء أدب مع الله جل وعلا، اسأل الله الجنة واستعذ بالله من النار من غير سوء أدب! وتعنت! واعتداء!

قال رحمه الله: (فإذا أعلمته بهذا فقل له: هل علمت أن هذا عبادة لله؟ فلابد أن يقول: نعم. والدعاء مخ العبادة: فقل له: إذا أقررت أنه عبادة ودعوت الله ليلاً ونهاراً وخوفاً وطمعاً، ثم دعوت في تلك الحاجة نبياً أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره؟ فلابد أن يقول نعم: فإذا عملت بقول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ (الكوثر) وأطعت الله ونحرت له، هل هذا عبادة؟ فلا بد أن يقول: نعم، فقل له: إذا نحرت لمخلوق، نبي أو جني أو غيرهما، هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟ فلابد أن يقر ويقول: نعم. وقل له أيضاً: المشركون الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلابد أن يقول: نعم فقل له: وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك. وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره وأن الله هو الذي يدبر الأمر ولكن دَعَوهم والتجؤوا إليهم للجاه والشفاعة وهذا ظاهر جداً).

فإذا قال صاحب الشبهة: لا! فهو مكابر معاند! وإذا قال: نعم إن هذا شرك، وإذا قال: لا! ليست عبادة: نقول: إذن أنت إما مكابر أو جاهل في معنىٰ العبادة وأنا بينتها لك، فهذا يرجع إلىٰ المكابرة، والمكابر المعاند لا المتمحل والمتغطرس، زاد مع عباده.. والحق لا جدال معه لأنه أضحىٰ راداً للحق بعناد وإصرار، وأكثر هؤلاء يؤولون إلىٰ هذه الرتبة.

أما إذا قال: نعم الذبح والدعاء والنذر عبادة، نقول: إذن فأفردها لله تعالىٰ وحده دونما سواه أياً كان هذا السِّوىٰ: ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو ضريحاً. . . !؟ وبيَّن له الأدلة التي جاءت بإفرادها لله جل وعلا.

وقوله: (**وقل له أيضاً المشركون الذين نزل فيهم القرآن...**) هذا جواب ثان الجواب الأول كان في بيان معنىٰ العبادة.

٢ ـ **والجواب الثاني**: في هؤلاء المشركين وهذا الجواب مبني علىٰ بيان الشرك، شرك الأولين ما هو، وكيف كان؟ فتبيِّن له كيف وقع أولئك في الشرك، وليس لك سبيل إلىٰ هذا، بأن تعرف أدلة التوحيد وما هو شرك أولئك فتحذره، وشركهم ما كان في الربوبية وإنما كان في الالتجاء والالتياذ والنذر والعبادة في هذا شركهم!، ولهذا دعا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يجنبه وبنيه الشرك في عبادة الأصنام.

قال رحمه الله: (فإن قال: أتنكر شفاعة رسول الله ﷺ وتبرأ منها: فقل: لا أنكرها ولا أتبرأ منها. بل هو ﷺ الشافع المشفع وأرجو شفاعته، ولكن الشفاعة كلها لله تعالى كما قال تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ولا يشفع النبي ﷺ في أحد إلا بعد أن يأذن الله فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ (الأنبياء: ٢٨) وهو سبحانه لا يرضىٰ إلا التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران: ٨٥) فإذا كانت الشفاعة كلها لله ولا تكون إلا من بعد إذنه، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه، ولا يأذن الله إلا لأهل التوحيد تبين لك أن الشفاعة كلها لله وأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته اللهم شفعه فيَّ، وأمثال هذا).

---

٥ ـ هذه الشبهة الخامسة:

انظر ـ يا رعاك الله ـ كيف يأتون الناس بالتلبيسات والشبهات، وهذا كثير لا سيما عند الغلاة بالنبي ﷺ وآل بيته، فيفاجؤك ويتهمك بقوله: تُنكر الشفاعة أنت؟! ليسكتك ويغلبك برفع الصوت! ويخوفك بهذا الأصل يأتيك بهذا الأمر، فإن كنت رخواً أذعنت له، وإن كنت راسخاً فقل: لا. ما أنكر الشفاعة التي هي طلب الدعاء من الحي الحاضر، ولكن أنكر أن أطلبها منه في حال موته! أو أطلبها من غير من يملكها. ومالكها هو الله عز وجل، لأن الله عز وجل يقول: ﴿**قل لله الشفاعة جميعاً**﴾.

أ ـ فالجواب الأول يقول: الشفاعة لله، واللام لام الملك ولام الاختصاص، والله يملكها والله يختص بها، ولا تطلب الشيء إلا من مالكه! فإن طلبته من غير مالك فأنت عندئذٍ ظالم ومعتدي، كما قال تعالىٰ: ﴿**قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾ (الزمر: ٤٤).

ب ـ الجواب الثاني: الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله؛ لأن الله ذكر في القرآن أنها لا تصح الشفاعة إلا من بعد إذنه، والشفاعة الصحيحة المقبولة لها شرطان:

١ ـ أن يأذن الله للشافع أن يشفع.

٢ ـ ويأذن أن يشفع الشافع في المشفوع فيه، وهو رضي الله عن المشفوع. فبهذين الشرطين تكون الشفاعة وتصح! والدليل عليهما قوله تعالىٰ: ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ** (٢٦)﴾ (النجم: ٢٦). ولهذا إذا أتىٰ الناس إلىٰ النبي ﷺ في المحشر يوم القيامة ذهب وسجد تحت العرش وحمد الله بأنواع من المحامد مدة طويلة حت يأتي الإذن: «**يا محمد ارفع رأسك وقُل يُسمع واشفع تشفع**»[1] والحديث في الصحيحين متفق عليه فها هنا جاء الإذن، أما قبل هذا لا يشفع حتىٰ يأذن الله له بالشفاعة.

---

(١) انظر صحيح البخاري ٤/ ١٠٥ ـ ١٠٦، كتاب بدء الخلق، صحيح مسلم (١/ ١٨٤ ـ ١٨٦، كتاب الإيمان.

تنبيه:

مسألة هل يشفع ﷺ هاهنا للمشركين؟ لا يشفع لهم لأن الله لم يرضى عن المشفوع له بهذه الشفاعة، وما جاء في شفاعة أبي طالب فهي خاصة، لكنها لا تنفع أبا طالب؛ حيث يَظنُّ أنه أشد أهل النار عذاباً وفي الحقيقة هو أقلهم عذاباً، وذلك إذا وضع في ضحضاح من النار.

أما الشفاعة العظمى، فالمشركون دخلوا تبعاً للمؤمنين، ولم يستقلوا بها، ثم هي شفاعة لا تنفعهم، بل تعجل بذهابهم إلى عذاب السعير، والعياذ بالله.

إذا تبين أنها لله فالنتيجة أن تُطلب من الله تعالى ولهذا تدعوا ربك: اللهم لا تحرمني شفاعة نبيك، اللهم شفَّعه فيَّ، فأنت دعوت الله جل وعلا أن يجعل نبيه شافعاً فيك، اللهم لا تحرمنا شفاعة الشافعين، لكن إذا قلت: يا نبي الله اشفع لي في حال موته وقعت في الشرك عندئذ، بدعاء وسؤال غير الله فانتبه؟!

قال رحمه الله: (فإن قال: النبي ﷺ أعطي الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله تعالى. فالجواب: أن الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا فقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ (الجن) فإذا كنت تدعوا الله أن يشفع نبيه فيك فأطعه في قوله ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ ، وأيضاً، فإن الشفاعة أُعطيها غير النبي ﷺ فصح أن الملائكة يشفعون، والأفراط يشفعون والأولياء يشفعون أتقول: إن الله أعطاهم الشفاعة وأطلبها منهم فإن قلت هذا رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكرها الله في كتابه، وإن قلت لا بطل قولك: أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله).

٦ـ هذه الشبهة السادسة:

لأنك إذا قلت يا رسول الله اشفع لي ، دعوته ووقعت فيما نهاك الله عنه أنك دعوت غير الله ، والنبي ﷺ وعدهُ الله بالشفاعة ، وأعطاه الله إياها يوم القيامة ، فإذا أَذن له بذلك يوم القيامة .

أما هذه المرحلة : في الدنيا لا نطلبها منه بعد موته بل من الله عز وجل لأنه سبحانه مالكها! فمتىٰ نطلبها منه ﷺ؟ إذا كان قادراً بعد الإذن من الله جل وعلا . الآن تأتي إلىٰ وزير الملك ونائبه تقول : يا فلان اشفع لنا عند هذا الأمير أو الملك يعطينا كذا ، فهو يقدر أن يسمعك ، لكن إذا كان ميتاً ، هل تقول له اشفع لي؟ الجواب : لا! لماذا؟ لأنه لا ينفعك! فهذه هي الشفاعة . ومعنىٰ طلب الشفاعة من الحي أن يطلب منه أن يدعو الله لغيره بحصول المطلوب .

فعلى هذه الشبه جوابان :

١ ـ الجواب الأول : أنها دعاء، وهذا جائز في حال الحياة أن يطلب من الله تعالىٰ للمحتاج .

٢ ـ الجواب الثاني : أنها تطلب من النبي ﷺ في حالة حياته وحيث يؤذن له فيها، وأما بعد موته فلا .

والأفراط : جمع فَرط، هو الميت الصغير الذي سقط من بطن أمه، ويطلق أيضاً على الصغير الذي إلىٰ دون البلوغ هؤلاء أفراط جمع فرط .

إذاً جوابان : إذا قال : أنا أطلبها منه لأن له شفاعة عند الله تعالىٰ، له جاه رجعنا إلىٰ شرك الأولين .

وإذا قال : لا ! فعندئذ يبطل قوله أن الله أعطاه الشفاعة .

سؤال وجواب

سؤال: ما قولكم حفظكم الله في سؤال الرجل الصالح وهو حي الشفاعة يوم القيامة، يقول: يا شيخ اشفع لي يوم القيامة هل هذا من الشرك؟

الجواب: هذا محرم لِمَ؟ لأني لا أدري هل هو صالح أو ليس كذلك، وهل يكون من أهل الصلاح أو ليس منهم، وهذا سؤال له ما لا يعنيه، بل هذا تنطع في السؤال. فهذا محرم ووسيلة إلى الشرك لكن أقول للرجل الصالح: ادعوا الله لي الآن في حال الدنيا، وهذا جائز مباح وإن كان عند بعض أهل العلم مكروه لمحققي التوحيد ولأهل كمال الإيمان؛ لأن هذا فيه نوع التفات إليه، واعتماد بقلبك عليه، فهذا فيه التفات وقد يخدش في كمال توحيدك، لكن في الأصل هو مباح وتعظم إباحته إذا كان المقصود به نفع هذا الداعي كما قال النبي ﷺ لعمر: «**لا تنسنا يا أُخي من دعائك**»(١)، فهل النبي ﷺ محتاج إلى دعاء عُمر رضي الله عنه؟ الجواب: أبداً، ولكن هذا لأجل أن ينتفع عمر رضي الله عنه بدعائه للنبي ﷺ في ظهر الغيب، فيُقيّض الله له ملكاً يقول: آمين، ولك بالمثل.(٢) وهذا المعنى قرره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم، وهو تقرير جيد.

(١) رواه أبوداود والترمذي ٣/ ٣٥٦، وحسَّنه انظر مشكاة المصابيح للتبريزي، كتاب الدعوات ٣/ ١٩١.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه وانظر شرح النووي على مسلم كتاب الذكر والاستغفار والدعاء والتوبة (باب: فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب» رقم (٦٨٦٤).

قال رحمه الله: (فإن قال: أنا لا أشرك بالله شيئاً حاشا وكلا ولكن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك. فقل له: إذا كنت تقر أن الله حرَّم الشرك أعظم من تحريم الزنا، وتُقر أن الله لا يغفره فما هذا الأمر الذي حرمه الله وذكر أنه لا يغفره، فإنه لا يدري فقل له: كيف تبرئ نفسك من الشرك وأنت لا تعرفه؟ أم كيف يحرم الله عليك هذا ويذكر أنه لا يغفره ولا تسأل عنه ولا تعرفه؟ أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا؟)

٧ ـ **الشبهة السابعة** من شبهات المشركين، أو من يُسوّغ ويبرِّر لأهل الشرك شركهم. وذلك أنه يقول: أنا لا أشرك بالله ـ حاشا لله ـ وأنا أبعد الناس عن الشرك، ولكن الالتجاء إلىٰ الصالحين ليس بشرك!! فهذا وقع في أمرين:

الأول: أنه ما عرف الشرك ما هو؟ وكيف يقع؟ وهذا هو الخطر الأول.

الثاني: والخطر الثاني أنه برأ نفسه من شيء لا يعرفه، فيحتاج إلىٰ أن يُعرّف الشرك، ويُعرّف أن هذا الالتجاء إلىٰ الصالحين ـ الذي ادعاه وأقرَّه علىٰ نفسه ـ أنه شرك بالله العظيم، وصاحب الشبهة والهوىٰ، إذا سمع قول الشيخ هنا (**فقل له: إذا كنت تُقر أن الله حرّم الشرك أعظم من تحريم الزنا**) قد يقول: إن الشيخ هنا يُبيحُ الزنا؟ قد يقول ذلك صاحب الهوىٰ أو مغالط ملبس، لكن هل هذا يُفهم من كلام الشيخ؟ الجواب:

أبداً الشيخ يقول هنا ـ بأفعل التفضيل ـ إن الله حرم الشرك أعظم من تحريمه الزنا لأن الزنا؛ حرام وكبيرة من الكبائر لا يحبط العمل، والشرك محبط للعمل، فهو أكبر الكبائر كما صحَّ بذلك الحديث عن النبي ﷺ(١) لكن صاحب الهوىٰ إذا أراد أن يتصيّد من الكلام ومن فلتات اللسان وجد إلىٰ مُتصيده سبيلاً وهذه هي طريقة أهل الأهواء، لاسيما إذا تعدىٰ هذا إلىٰ تصيد الأخطاء القولية واللفظية إلىٰ أن يستطيل عليه، ويتهمه: بأنهُ يقصد في كذا يريُد كذا، إذا قال: فلان يريد كذا يقصد كذا، ما أدراك أنه يريد ويقصد، بأمرٍ ما دّل عليه عبارة لفظه، أو حال مقامه، وحال فَعله، فالكلام بهذا كلام بالنيات وهذا والعياذ بالله يُخشىٰ عليه أن يصل إلىٰ منازعة الله جل وعلا في علم الغيب، لأن الذي يعلم السر وأخفىٰ من السر هو الله جل وعلا، فإذا قلت يقصد ويريد وما دّل كلامه علىٰ ما ذكرته من قصده وإرادته فهذا والعياذ بالله ادعاء بالظن والجهل ومنازعة لما غاب عنا علمه.

فيقول الشيخ: كيف تبرئ نفسك من الشرك؟ فما هو الشرك الذي نفيتهُ عن نفسك؟ فأنت وقعت في خطأين عظيمين كلاهما قبيح وخطير، والثاني أعظم من الأول.

(١) من حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» ـ ثلاثاً ـ قلنا بلى يا رسول الله قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**» وكان متكئاً فجلس، فقال: «**ألا وقول الزور، وشهادة الزور**» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. أخرجه البخاري (٥/ ٢٢٣٩) ومسلم (١/ ١٩١).

قال رحمه الله: (فإن قال: الشرك عبادة الأصنام ونحن لا نعبد الأصنام فقل له: ما معنى عبادة الأصنام؟ أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها؟ فهذا يُكذبه القرآن وإن قال: هو من قصد خشبة أو حجراً أو بنية على قبر أو غيره يدعون ذلك ويذبحون له يقولون: إنه يُقربنا إلى الله زلفى ويدفع الله عنا ببركته ويُعطينا ببركته فقل: صدقت وهذا هو فعلكم عندالأحجار والأبنية التي على القبور وغيرها فهذا أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام فهو المطلوب).

رجع الشيخ؟ إلى **الشبهة الثانية** من الشبه الثلاث الكبار، حيث ذكر المخالف أن الشرك عبادة الأصنام فقط ونحن لا نعبد الأصنام، وهذا خطأ في فهم شرك الأولين ما هو؟ فالمشركون الأولون ما اعتقدوا أن هذه الأخشاب والأحجار والأصنام والرخام والقبور والجن أنها تخلق وترزق، لم يعتقدوا ذلك، وإنما جعلوا هذه المظاهر الحجارة رموزاً على صالحين، إنما هم وسائط عند الله جل وعلا يُقربون إلى الله زلفى وشفعاء.

قوله رحمه الله (**وإن قال: هو من قصد خشبةٍ أو حجراً أو بنية على قبرٍ**) يعني: بناء قال بنية على صفة التحقير لها، بنيّة وليست بُنية.

فإذا قال المخالف: الشرك عبادة الأصنام فهذا خطأ، إن قال: هو من قصد هذه الأشياء يدعوها من دون الله ويتقربون إليها يذبحون لها فهذا

هو الشرك. فقد تكون الأحجار والأبنية على غير قبور، على غِيْران، أو على فحل نحل أو على موضع، أو على شمس، أو على قمر، ليس لازماً أن تكون على قبور لكنها على قبور أوضح وأظهر وأكثر وأشهر ولهذا بعض الناس يذمنا ويُدندن علينا أن ما عندنا إلا شرك القبور؟!

وشرك القبور هو من أوضح مظاهر الشرك لكن لا يختص الشرك بالقبور فقط فالشرك متنوع في القبور وفي الأحجار وفي الأشجار وفي الشمس وفي القمر وفي تعظيم العلماء والأمراء والسادات في شرك الطاعة في تحكيمهم في غير شرع الله جل وعلا، هذه أنواع كثيرة من الشرك، لكن أظهرها في هذا الزمان، والزمان الذي قبله هو ما يتقرب به إلى ذوي المقامات والمزارات والعتبات والأضرحة والقبور والسادات والأولياء بأنواع العبادات والقربات، كالدعاء، والاستغاثة، والذبح، والنذور، والطواف، والحلف بها والتبرك... إلخ.

قال رحمه الله: (ويُقال له أيضاً: قولك: (الشرك عبادة الأصنام) هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا، وأن الاعتماد على الصالحين ودعائهم لا يدخل في ذلك؟ فهذا يرده ما ذكر الله في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة أو عيسى أو الصالحين، فلابد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحداً من الصالحين فهذا هو الشرك المذكور في القرآن وهذا هو المطلوب).

---

* وإذا قال المخالف: إن الشرك عبادة الأصنام وأراد أنه مخصوص به، فهل هذا حق أو باطل؟ الجواب: بل باطل؛ لأنه أخرج دعاء الصالحين، وأخرج الاستشفاع بالصالحين، وأخرج التوسل بالصالحين، وأخرج أيضاً الذبح للصالحين... إلخ، والصالحون ليسوا أصناماً، فَحصرُ الشرك عنده بالأصنام خطأ وباطل، بل الشرك اسم جنس لكل من جعل مع الله أحداً في عبادةٍ من العبادات، وإن لم يجعلها في سائر العبادات، أو في نوع واحد من أنواع العبادة كلها، في الذبح كله، فلو ذبح ذبيحة واحدة ولو عصفوراً أو نملة، أو دعا مرةً واحدة غير الله كان بذلك مشركاً إذا رضي بذلك!! والشرك عام.

وغلاة الصوفية: أهل وحدة الوجود قالوا: إن المشركين كفروا لما خصصوا الشرك باللات أو بالعزىٰ أو بالأصنام أو بفرعون كفروا، ولو جعلوا العبادة في عموم الأشياء لكانوا مؤمنين، كما أساطينهم: قاله ابن سبعين وابن الفارض وابن عربي الصوفي، حتىٰ جعلوا القرآن كتاب

شرك ولم يجعلوه كتاب توحيد، وهذه مرحلة دنيا دنيّة من مراحل الغواية ودركة عظيمة من دركات الوثنية في التوحيد ما بلغها إلا عُتات هؤلاء، وما تأتىٰ أن يبلغوها إلا لَمَّا درجوا علىٰ تعظيم السادات والأولياء والأضرحة، واستحسنوا ذلك واستمرأوه، ثم تفلسفوا وتذوقوا بالكفر البواح.

والآن يبيِّن الشيخ الأصل في هذه المسألة الأصل فيها، والسَّر فيها وهذا خلاصة ما سبق.

قال رحمه الله تعالى: (وسر المسألة أنه إذا قال: أنا لا أشرك بالله فقل له: وما الشرك بالله، فسِّرهُ لي؟ فإن قال: هو عبادة الأصنام فقل: وما معنى عبادة الأصنام فسرّها لي؟ فإن فسرّها بمَّا بينهُ القرآن فهو المطلوب، وإن لم يعرف فكيف يدّعي شيئاً وهو لا يعرفه؟)

فالمقصود وإن فُسِّر ذلك بغير معناه، بيَّنت له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله وعبادة الأوثان، وأنه الذي يفعلونه في هذا الزمان بعينه، وأن عبادة الله وحده لا شريك له هي التي ينكرون علينا ويصيحون فيها كما صاح إخوانهم حيث قالوا: ﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)**﴾.

قوله رحمه الله: (وسر المسألة) يعني حقيقتُها ولبُها وكُنهُها والشيء إذا عرفت حقيقته سهل بعد ذلك معرفة أفرادهُ وأنواعه، فكيف ينفي عن نفسه شيء وهو لا يعرف هذا الشيء المنفي؟ هذا في الحقيقة تناقض! أو أنه نفى عن نفسه شيئاً سماه شركاً، وهو في الحقيقة ليس بالشرك أو أقرَّ لنفسه بشيء سماه توحيداً وهو في الحقيقة شرك وليس توحيداً، هذه الدرجات وهذه المقامات في البحث والمناظرة وكشف الشبهة معهم! بمثل هذا ينتقل من الأمر الواضح إلى ما هو أقل وضوحاً وهكذا! فيردهُ إلى الواضح حتى يُقَّر به، فعندئذ ليس له إلا أمرين:

إما يوافق.

وإما يعاند ويكابر فيجحد!

تنبيه:

ولهذا أهل التوحيد، وأهل الإيمان، وأهل السنة لا يملُّون ولا يكلُّون من تكرار الكلام في التوحيد، وتثبيته، والدعوة إليه، والتواصي عليه، ولهذا يعيبهم بعض من لا علم له، أو لا فقه له، أو غُمس في بدعة وتحزِّب وهوىٰ، يقول: أنتم ما عندكم إلا التوحيد ما عندكم إلا إفراد الله بالعبادة لماذا لا تتكلمون عن أخلاق الناس وأحوالهم وما إلىٰ ذلك، فالجواب أن هذا الذي يهون من شأن التوحيد بهذه الصفة جاهل بحقيقة التوحيد بل لم يذق قلبه طعم التوحيد، لأنه لو صلح توحيد الناس

صلحت أمورهم، فما الأخلاق والمعاملات وتحريم الربا وترك المحرمات، بل وفعل الواجبات وما هذه كلها إلا مرتكزة على التوحيد، فإنه إذا وحّد الله صدقاً، وأخلص له العبادة صدقاً، أطاع أمره واجتنب نهيه، وحاذر معصيته وسارع إلى طاعته، فالكلام في التوحيد لا يملُّه من كان موحداً مؤمناً صادقاً، لا يملُّه أبداً، بل إن نفسه تشتاق إليه ولهذا كانت عناية المشايخ والعلماء بهذا التوحيد عنايةً ظاهرةً، يُعيدون فيه ويبدأون ويكررون دراسة وإسماع كتاب التوحيد حفظاً وشرحاً وفهماً ودعوة وتطبيقاً، لقد أدركنا المشايخ إذا انتهينا من كتاب التوحيد كرّروه مرة ثانية لأنه لا يُملُّ منه، وهو ستة وستين باباً مما نعالجه يومياً، بل ربما نقع فيه ونحن لا نبالي، فتكرارها ترسيخ لهذا الأصل العظيم وهذه هي القاعدة، فإن البناء إذا كان على قاعدة عظيمة فإنه يبقى ويسلم من عوارض الدهر، أما إذا كان البناء على قاعدة هشة فمآلهُ إلى الهوي والسقوط، وكتاب التوحيد لأنه فصّل هذه المسائل في ستة وستين باباً كان العلماء يُكرورنه، ويُعيدونه على طلابهم ويُطالبونهم بحفظ ألفاظه ويتفقهون في معانيه، وهو ستة وستون باباً اشتملت على تحقيق أصل التوحيد لله جل وعلا، توحيد العبادة وما اشتملت عليه من مسائل التحذير من الشرك الأصغر والشرك الأكبر في العبادة والشرك الأكبر في الربوبية، وأيضاً في تحذير تعطيل الأسماء والصفات. فتدرك عندئذ عظيم الحاجة إليه.

قال رحمه الله تعالى: (فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا الإعتقاد هو الشرك الذي نزل فيه القرآن وقاتل رسول الله ﷺ عليه فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين:...)

ولا يعني هذا ـ عند من لا يظن بالشيخ خيراً، أو عند من ساء قصده ـ أن الشيخ يهوِّن من شرك الزمان الأول، بل شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بمظهرين أشار إليهما الشيخ ومرَّ التنبيه عليهما.

مع عظم وشناعة الشرك عند الأولين والآخرين!!

قال رحمه الله تعالى: أحدهما: أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء وأما في الشدة فيخلصون لله الدين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ (الإسراء: ٦٧) وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الأنعام: ٤٠) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ (الزمر: ٨) وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (لقمان: ٣٢).

المقصود إذا مسكم الضر في البحر وادلهمت عليكم الخطوب ما عرفتم إلا رباً واحداً، فهذه آية الإسراء وهي مكية مثل آية يونس ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، هنا فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً؛ لأنه لما نُجي وسُلِّم جحد من خصَّه بالدعاء والعبادة وأشرك معه غيره في حال الرخاء، أما شرك زماننا في حال الرخاء وحال الشدة.

فمشرك زمننا إذا جاءتهُ المصيبة أو الكرب أو الأمر العظيم تجدُهُ إذا كان ممن يُعظم الحسين أو العباس، نادىٰ مستغيثاً يا حسين! يا عباس! وإن كان ممن يُعظم عبدالقادر وجاءت المرأةَ الطلقُ وهي حامل مثلاً، أو الغرق وهو غريق، أو الحرق نادىٰ مستغيثاً: يا سيدي عبدالقادر في حال الشدة فوقعوا في الشرك في الشدة، كما أنهم أشركوا بالرخاء، فأيهم أعظم؟! كلاهما عظيم، لكن أيهما أخطر؟! الجواب: الشرك في الشدة أخطر لأن في الشدة في حال الكرب ولا يعرف الإنسان إلا من يعتقد فيه هذا الاعتقاد، ولهذا يتجه إليه مباشرة؟! والمؤمن إذا اشتدت عليه الأمور من يعرف؟ يقول يا الله يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، يعرف ربه وخالقه الذي يعبده!، فهذا يونس عليه السلام لما ادلهمت عليه الخطوب وبقي في بطن الحوت التقمه ابتلعه ما كان دعاؤه؟ ﴿**لَّآ إِلَهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** (٨٧)﴾ ما دعا أو سأل أو نادىٰ أو استغاث بغير الله!!

وقوله تعالىٰ ﴿**بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ** (٤١)﴾ يعني في حال الضراء نسوا الشرك، ونسوا من اعتقدوا فيه، وفي حال السراء رجعوا إلىٰ ما كانوا عليه، وأشد منهم وأخطر هو المشرك في حال الضراء يلتفت إلىٰ سيده إلىٰ من يعتقد فيه الهداية والولاية ويعتقد فيه النفع والضر كما أنه كذلك في حال السراء.

قال رحمه الله تعالى: (فمن فهم هذه المسألة التي وضحًها الله في كتابه وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضراء والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له وينسون سادتهم. تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين. ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً راسخاً، والله المستعان).

نعم . أي واللَّه ، والله المستعان على ما يصفون : كما قال الأول :

علـيّ نحت القـــوافي من أعنتـــهـــا
ومـــاذا علي لو لم تفـــهم البـــقـــر

مع أن هذه واضحة ، لكنها ليست واضحة على من على قلبه غشاوة ، وفيه عمىً ، فالآن الأعمى أو الأعشى ما يرى الشمس ، فالبلاء فيه ليس في الشمس ، فالذي لا يرى الشمس في رابعة النهار البلاء والنقص فيه هو ! ، كذلك في هذه المسائل الواضحة في غاية الوضوح من لم يفهمها فالنقص والخطأ فيه لا في كتاب الله المنزل ، وليس في دين الله ، وليس في توحيد الله تعالى .

قال رحمه الله تعالى: (الأمر الثاني: أن الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله إما أنبياء، وإما أولياء، وإما ملائكة، أو يدعون أشجاراً أو أحجاراً مطيعة للّه ليست عاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك. والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل الخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به).

والمقصود أن هناك أيضاً مظهر ثالث يُبين لكم أن شرك الأولين أخف من شرك هؤلاء، أن الأولين لو أستُحلفوا بالله لما حلفوا كاذبين وهؤلاء لو أستحلفوا بالله عز وجل ما تردّد أحدهم أن يحلف بالله كاذباً لكن لو أستحلف بسيده الذي يُعظمه أو بوليه الذي يقصده ويدعوه ويرجوه، لمَا حلف به كاذباً بل خشي أن تُصيبه العقوبة من هذا الولي، أو من هذا السيد، أو من صاحب القبر والضريح، الذي يَعتقد فيه!، فلو قلت للرافضي مثلاً: احلف بالحسين! فإنه لا يحلف كاذباً، ولو قُلت للقادري: أحلف بالشيخ عبدالقادر! لا يحلف! وكذا إن قلت للنقبشندي: احلف بخالد النقبشندي لا يحلف، ولو أستحلف هؤلاء بالله لما تردد أحدهم أن يحلف مائة يمين كاذباً فاجراً فيها؛ وذلك لأنه قام في قلبه من تعظيم هذا السيد أشد مما قام من تعظيم الله وخوفه.

قوله رحمه الله: (**والأمر الثاني**): يعني المثال الثاني الذي يبين أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا وأن شرك أهل زماننا أعظم من شرك الأولين، فمشركوا زماننا شركهم في أناس فاسدين فجرة كفرة ظلمة، أما الأولون شركهم في أنبياء ورسل، وفي ملائكة، وفي صالحين، أو في أحجار وأشجار هي مطيعة لله لا يصدر منها معصية (وهذا تفاضل في دركات المُشْرَك بهم) في دركاته، وفي حضيضه، فإن من أشرك مع الله صالحاً خير ممن أشرك مع الله فاسداً طالحاً فاجراً، وذلك أن هؤلاء الذين يعتقدون فيهم الولاية عندهم اعتقاد خبيث ورد عليهم من الأمم قبلنا أنهُ إذا وصل إلىٰ رتبة في التعبد سقطت عنه التكاليف، وعندئذ يقع في المحرمات يسرق يزني يشرب الخمر، لأنه تجاوز القنطرة، بل يقع في نكاح محارمه، فقد يقع علىٰ أمه، أو أخته، أو بنته، أو خالته، أو عمته، لأنه جاوز القنطرة، كما يُعتقد ـ والعياذ بالله ـ فيمن قد بلغوا بزعمهم الحقيقة أو بلغوا اليقين، وهذا خروج أصلاً عن شريعة الإسلام، فكيف يُعتقد فيه الولاية وهو خارج عن هذه الشريعة، هذه هي إباحية مزدك وهي المجوس والمزدكية والمانوية هذه هي إباحيتهم التي حكم عليها العلماء بأنها زندقة، وأنها خروج عن الإسلام أصلاً فكيف بعد هذا يُعتقد فيهم الولاية؟ وهم كفار بإجماع المسلمين كما حكاه أبو بكر ابن الطيب الباقلاني وأبو حامد الغزالي وأبو العباس ابن تيمية وغيرهم رحمهم الله.

قال رحمه الله تعالى: (وإذا تحققت أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ، أصح عقولاً، وأخف شركاً من هؤلاء، فاعلم أن لهؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا وهي من أعظم شبههم، فأصغ سمعك لجوابها وهي: أنهم يقولون: إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويكذبون الرسول ﷺ، ويُنكرون البعث ويُكذبون القرآن ويجعلونه سحراً، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ونصدق القرآن، ونؤمن بالبعث ونُصلي ونصوم فكيف تجعلوننا مثل أولئك؟)

٨ ـ الشبهة الثامنة:

تكثر عند من تروج عندهم مقالة الإرجاء، حيث يقولون: نحن نقول لا إله إلا الله فكيف تكفروننا؟! ونحن نصدق الرسول فكيف تُكذبوننا؟! ويجعل الشرك فقط فيمن فعل شرك الأولين فقط دون غيره، إذاً من قال: لا إله إلا الله وذبح لغير الله أتنفعه لا إله إلا الله؟ الجواب: لا تنفعه، فمن كان أصلح الناس فيما يظهر لنا، يقرأ القرآن بروايات العشر، ويحفظ الحديث، ويقوم الليل، ويصوم النهار يتصدق لكنه يُسوِّغ أن يدعوا النبي ﷺ أو غيره من المخلوقين؛ يقول مثلاً: يا رسول الله المدد أو أنه يُصدق الكاهن، هل تنفعه هذا الطاعات؟؟ الجواب: لا تنفعه لأنه أتى بناقض من نواقض الإسلام، الذي لا يصلح الإسلام معه، ولا يصح الإسلام معه، ولو كان من أصلح الناس في عمله أليس كان في

مكة من المشركين من يُعظمون الله يُصلون ويصومون ويحجون ويتصدقون؟ بل منهم من لا يشرب الخمر! فهل ينفعهم هذا؟ الجواب: ما نفعهم إلا إذا قالوا: لا إله إلا الله محققين فيها التوحيد لا قول مجرد عن الاعتقاد والعمل.

ومع الأسف فإن مشركي الجاهلية كانوا أصدق من مشركي زمننا، حيث لم يقولوا لا إله إلا الله بأفواههم ما داموا لم يحققوها، ولم يعتقدوا بها. وأما مشركوا زماننا فيقولونها بألسنتهم وأفواههم، ثم يخالفوها ـ بعلم أو بجهل ـ بأقوالهم، ومقاصدهم ونياتهم، وأعمالهم! نسأل الله الثبات على دينه.

قال رحمه الله تعالى: (فالجواب: أنه لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدَّق رسول الله ﷺ في شيء وكذبه في شيء، أنه كافر لم يدخل في الإسلام، وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه كمن أقرّ بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة، أو أقرَّ بالتوحيد والصلاة وجحد وجوب الزكاة، أو أقر بهذا كله وجحد الصوم، أو أقر بهذا كله وجحد الحج، ولمَّا لم ينقد أناس في زمن النبي ﷺ للحج أنزل الله في حقهم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾ (آل عمران) . ومن أقر بهذا كله وجحد البعث كفر بالإجماع، وحل دمه وماله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١)﴾ (النساء) .

والمقصود هذا قرَّره الشيخ رحمه الله في «ثلاثة الأصول» قوله تعالىٰ في سورة التغابن : ﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧)**﴾ لأنها من أجمع ما جاء في القرآن في آية واحدة دلت علىٰ الإيمان بالبعث في عدة مؤكدات ، بلغت ستة مؤكدات في هذه الآية .

قال رحمه الله تعالى: (فإذا كان اللّه قد صرّح في كتابه: أن من آمن ببعض وكفر ببعض، فهو الكافر حقاً، وأنه يستحق ما ذكر، زالت هذه الشبهة، وهذه هي التي ذكرها بعض أهل الاحساء في كتابه الذي أرسله إلينا. ويقال أيضاً: إن كُنت تُقرُ أن من صدّق الرسول ﷺ في كل شيء، وجحد وجوب الصلاة؛ أنه كافر حلال الدم والمال بالإجماع وكذلك إذا أقر بكل شيء إلا بالبعث، وكذلك لو جحد وجوب صوم رمضان، وصدق بذلك كله لا تختلف المذاهب فيه، وقد نطق به القرآن كما قدمنا).

وهذا إشارة إلى «كشف الشبهات» أنه اعتراض من بعض المنتسبين للعلم في الاحساء[1] في كتاب أرسله للشيخ حيث ما أورد عليه: كيف تُكفروننا ونحن نقول: لا إله إلا الله ونصدق بالرسول ونؤمن بالبعث؟؟ والجواب: نُكفركم إذا وقع منكم الكفر بدعاء الصالحين، أو التوسل بهم، أو سؤالهم الشفاعة، أو الالتجاء والالتياذ بهم، أو الذبح لهم، أو الطواف بمقاماتهم، لأنَّهُ لما أقررتم بالشهادة وبالبعث وبتصديق الرسول، لم تحققوا وتقروا بإفراد الله بحقه، وأعظم حقه سبحانه التوحيد.

(١) لا طائل من معرفة اسم هذا المخاصم للشيخ؟ ولو كان فيه كبير أثر لأبان الشيخ المجدد عن اسمه، ولكن لكمال حكمته ووفور عقله لم يظهر اسمه، بل أبهمه.

قوله رحمه الله (ويقال أيضاً: إذا كنت تُقر أن من صدق الرسول) .

والمقصود أنه أعظم من ذلك، القرآن إن أقرّ ببعضه وحرّف بعضه لغير الله أشد من جحد وجوب الصلاة أو وجوب الزكاة أو وجوب الصوم أو أنكر الجهاد، من صرف بعض التوحيد لغير الله فهو أعظم وأنكر وهذه قاعدة أولى .

قال رحمه الله تعالى: (فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ، وهو أعظم من الصلاة والزكاة، والصوم، والحج، فكيف إذا جحد الإنسان شيئاً من هذه الأمور كفر ولو عمل بكل ما جاء به الرسول ﷺ وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر؟! سبحان الله، وما أعجب هذا الجهل!

ويقال أيضاً: هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ، قاتلوا بني حنيفة، وقد أسلموا مع النبي ﷺ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويؤذنون ويُصلون.

فإن قال: إنهم يقولون: إن مسيلمة نبي.

فقل: هذا هو المطلوب، إذا كان من رفع رجلاً إلى رتبة النبي ﷺ كفر، وحل ماله ودمه، ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة، فكيف بمن رفع شمسان أو يوسف أو صحابياً أو نبياً إلى مرتبة جبار السموات والأرض؟ سبحان الله، ما أعظم شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (الروم) .)

وهذا **جواب ثالث**، من الذي أسلم؟ إنهم بنو حنيفة وشهدوا أن لا إله إلا الله وصلَّوا، لكنهم امتنعوا من الزكاة، ومنهم من صدّق بنبوة مُسيلمة وإنما منعوا الزكاة جحداً لوجوبها لأنهم قوتلوا على منعها.

أما (**شمسان**) هذا فقد كان يُعتقد فيه أنه من الأولياء في نجد، وكذا

(تاج) كان يُعتقد فيه الضر والنفع، وهو صاحب مقام فيه، وأنه يُجيب من دعاه ويُغيث من استغاثه! فهذا أعظم ممن جعله نبي؟! لأنه خصَّص له من خصائص الربوبية، وهذا أعظم ممن صدق بنبي غير النبي عليه الصلاة والسلام.

قال رحمه الله تعالى: (ويقال أيضاً: الذين حرقهم علي ابن أبي طالب رضي الله عنه بالنار، كلهم يدعون الإسلام وهم من أصحاب علي رضي الله عنه وتعلموا العلم من الصحابة ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان وأمثالهما، فكيف أجمع على قتلهم وكفرهم؟ أتظنون أن الصحابة يُكفرون المسلمين؟ أم تظنون أن الاعتقاد في تاج وأمثاله لا يضر، والاعتقاد في علي ابن أبي طالب رضي الله عنه يُكَّفر).

هذا **جواب رابع**، وهو في غلاة الرافضة الذين اعتقدوا أن علياً هو الرب، وأنه الله، وهو المدبر المتصرف، وقد أنذرهم عليٌّ رضي الله عنه ثلاثة أيام، وأمر قُنبر مولاه أن يأتي بفعله يخدُون الأخاديد وأوقدوا فيها النار، وأتىٰ بهؤلاء الغلاة السبئة يوقفهم علىٰ هذه النار، ويتوعدهم أن يقذفهم فيها إن لم تتوبوا، وهم في كل مرة يزدادون إصراراً! فقذفهم رضي الله عنه في النار غيرةً علىٰ توحيد الله، وقال مقولته المشهورة:

إني لما رأيتُ الأمر أمراً مُنكراً

أججتُ ناري ودعوت قنبرا

رأيتُ الأمر أمراً منكراً: لأنه تعلق بجناب الربوبية بجناب الله جل وعلا، ومع ذلك حرقهم وقتلهم رضي الله عنه وأزهق دماءهم مع أنهم من أصحابه ويُصلون ويشهدون أن لا إله إلا الله ويؤمنون بالبعث لكنهم أتو بناقضٍ من نواقضه.

قال رحمه الله تعالى: (ويقال أيضاً: بنو عُبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمان بني العباس، كُلهُم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويَدَّعون الإسلام، ويُصلون الجمعة والجماعة، فلمَّا أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه، أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنفذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين).

بنو عُبيد القداح : هم الباطنيون العُبيديون الذين يُنسبون زوراً إلىٰ فاطمة، ويتسمَّون في التاريخ بالفاطميين، ويدخل فيهم الإسماعيلية والقرامطة والدروز والحشاشون، ويدخل فيهم أيضاً النُصيرية العلوية، ويدخل فيهم أيضاً البُهرة الأغاخانية، ويدخل فيهم المكارمة السليمانية والداوردية ويدخل فيهم من اعتقدوا إمامة إسماعيل، وأن للدين باطناً وظاهراً، كل هؤلاء غُلاة الرافضة وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارىٰ كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في النصيرية: أكفر من اليهود والنصارىٰ وكثير من المشركين لا تحل ذبائحهم كما نصَّ علىٰ ذلك محققوا علماء الإسلام.

قال رحمه الله تعالى: (ويقال أيضاً: إذا كان الأولون لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول والقرآن، وإنكار البعث وغير ذلك، فما معنى الباب الذي ذكره العلماء في كل مذهب: «باب حكم المرتد»، وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه، ثم ذكروا أنواعاً كثيرة كل نوع منها يكفر ويحل دم الرجل وماله، حتى أنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها، مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب).

هذا **الجواب الخامس** ذكره الشيخ في باب حكم المرتد الذي ذكره العلماء الفقهاء في كتاب الحدود من كتب الفقه، الشافعية والمالكية والحنابلة والحنفية في نصوص دلت على كفر بالقول: يقول قولاً فيكفر، أو يفعل فعلاً فيكفر أو يعتقد اعتقاداً فيكفر، وهذا ردٌّ على جنس المرجئة الذين ما كفروا إلا بالاعتقاد، أو بالتكذيب، أو بالجحود فقط دون الكفر بالقول أو العمل!، بل الكفر يكون بالقول وبالفعل ويكون أيضاً بالاعتقاد؛ ففي الاعتقاد أعتقادٌ مناقضٌ للدين كمن اعتقد في الأولياء والسادات فهذا الذي ينكر هذا القول (تكفير الكافر المشرك) على العلماء على الشيخ وأمثاله ينكره أيضاً على أئمة المذاهب الأربعة وتلاميذهم وأتباعهم.

قال رحمه الله تعالى: (ويقال أيضاً: الذين قال الله فيهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ (التوبة: ٧٤). أما سمعت الله كفرهم بكلمة مع كونهم في زمن رسول الله ويُجاهدون معه ويصلون، ويُزكون ويحجون، ويوحدون، وكذلك الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾ (التوبة) فهؤلاء الذين صرّح الله فيهم أنهم كفروا بعد إيمانهم وهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح).

هذا **الجواب السادس** الذين قالوا: ما رأينا مثل قُرائنا هؤلاء... إلخ

قوله رحمه الله تعالىٰ: **(ويجاهدون معه)** لأنهم خرجوا معه إلىٰ تبوك، وجاهدوا معه من قبل، ومع ذلك كفَّرهم، فهم صلُّوا وصاموا وأظهروا التوحيد لكن لمَّا أتوا بالناقض ما عذرهم قولهم وإتيانهم بالناقض علىٰ أن يُكفَّروا، وأن يُقال أنهم كفروا، وكفروا بعد إسلامهم، لقوله تعالىٰ عنهم في آية براءة: ﴿**قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ إذاً كان لهم إيمان ثم كفروا بهذه المقالة التي قالوها في النبي ﷺ وفي أصحابه رضي الله عنهم.

قال رحمه الله تعالى: «فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم: تُكفرون من المسلمين أناساً يشهدون أن لا إله إلا الله، ويُصلون ويصومون. ثم تأمل جوابها، فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق. ومن الدليل على ذلك أيضاً: ما حكى الله عن بني إسرائيل مع إسلامهم وعلمهم وصلاحهم، أنهم قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨) وقول أناس من الصحابة: (اجعل لنا ذات أنواط)[1] فحلف النبي ﷺ، أن هذا نظير قول بني إسرائيل: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ .

٩ ـ هذا الشبهة التاسعة:

ومضمونها، وأنتم وهابية تُكفرون المسلمين الذين يُصلون، تكفرون أهل لا إله إلا الله، فكيف تُكفرّون من يقول لا إله إلا الله؟ هذه الشبهة من أعظم شبههم.

والرد عليها: نقوله لهم: مع ما سبق بيانه وإيراده، أننا ما كفّرنا هؤلاء إلا لَمَّا أتوا بالناقض، ولا نستسيغ بل لا نجيز أن نُكفَّر مسلماً، حتى لو وقع في الكفر جاهلاً فلا نُكفره بعينه، فإذا وقع مسلم بالكفر وهو جاهل أو يظن أن هذا ليس بكفر، فنقول فعله كفر أكبر لكن هو بعينه لا يكفر لأنه معذور بجهله إلا أن يقع فيه مختاراً عالماً فهذا يكفر، ولهذا

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب «الفتن» باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم حديث رقم (٢١٨١) ورواه الإمام أحمد في المسند حديث رقم (٢١٩٤٧ ـ ٢١٩٥٠ ـ ٢١٩٥٢).

تكفير المعين له شروط وله موانع إذا اجتمعت كُفِّر بعينه وإلا توقفنا في تكفيره، لكن يُحكم على فعله بأنه كفر أكبر، ولا يلزم أن يكون هو في نفسه كافراً كفراً أكبر مخرجاً من الملة.

وهذه الشروط والموانع إجمالاً:

١. العلم المنافي للجهل.

٢. التكليف المنافي لعدمه من جنون وصغر ونحوهما.

٣. الاختيار المنافي للإكراه هو سواء بالقول أو الفعل دون القلب فلا إكراه فيه.

٤. القصد المنافي للخطأ وألحق الله به التأويل.

قال رحمه الله تعالى: (ولكن للمشركين شبهة يُدلون بها عند هذه القصة وهي أنهم يقولون: أن بني إسرائيل لم يكفروا بذلك، وكذلك الذين قالوا للنبي ﷺ اجعل لنا ذات أنواط. لم يكفروا).

فالجواب: أن نقول: إن بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك، ولا خلاف أن بني إسرائيل لو فعلوا ذلك لكفروا، وكذلك لا خلاف في أن الذين نهاهم النبي ﷺ لو لم يُطيعوه، وأتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا، وهذا هو المطلوب).

١٠ـ وهذه الشبهة العاشرة:

وهي خلاصة للتي قبلها وتنِّويع في التمثيل: فالشبهة التي قبلها يقولون: كيف تكفرون من يقول: لا إله إلا الله؟ والتي قبلها يقولون: نحن نقول لا إله إلا الله كيف نكفر ونحن نُتصدق ونُصلي والله جل وعلا إنما كّفر من لم يقل لا إله إلا الله، ولا يصدق بالرسول لكن على سبيل التفصيل، هذه التي مضت التاسعة وهذه عاشرة أن شُبهتهم يقولون: إن بني إسرائيل لم يكفروا بقولهم: ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾، وكذلك لما مرَّ من كان مع النبي ﷺ على قرية لهم صنم وأنهم كانوا حُدثاء عهد بالإسلام لم يَكفروا لم يُكفرهم النبي ﷺ لما قالوا: اجعل لنا ذات أنواط هذه شبهة لهم، والجواب: أن هؤلاء قالوا هذا عن جهل وما تمادوا في كفرهم، فهم لم يفعلوه، ولو فعلوه كفروا، لكن لَّما نُهوا انتهوا.

قال رحمه الله تعالى: (ولكن هذه القصة تُفيد: أن المسلمين. بل العالم. قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها، فتُفيد التعلم والتحرر ومعرفة أن قول الجاهل. التوحيد فهمناه. أن هذا من أكبر الجهل ومكايد الشيطان. وتُفيد أيضاً: أن المسلم المجتهد إذا تكلم بكلام كُفر، وهو لا يدري فنبه على ذلك فتاب من ساعته، أنه لا يكفر كما فعل بنو إسرائيل، والذين سألوا النبي ﷺ).

يعني رحمه الله: قصة بني إسرائيل في طلبهم الشرك، وحُدثاء العهد بالإيمان والإسلام بعد فتح مكة لما طلبوا ذات أنواط كما لأولئك ذات أنواط هاتان القصتان تجعل المؤمن على خطر، وعلى خوف، وعلى وجل عظيم من أن يقع في الشرك وهو لا يشعر، لأن أولئك نبههم النبي ﷺ، ونبهوا بالقرآن. لكن في هذا الزمان إن لم تكن عارفاً بالتوحيد فمن ينبهك؟ ومن يحذِّرك هذا الشرك؟

وقوله رحمه الله تعالى: **(ومعرفة أن قول الجاهل. التوحيد فهمناه. أن هذا من أكبر الجهل ومكايد الشيطان)** وما أكثر ما يقال هذا الآن نحو قولهم: نحن مللنا التوحيد، وفهمنا التوحيد، وعرفناه، وماله حاجة! لنأخذ المعاملات، ولنأخذ الأخلاق، ولنأخذ السياسة، ولنأخذ الإستراتيجيات الدولية، فهذا وأمثاله ما عرف السياسة ولا عرف توحيده، ضيع «مشيته ومشية الحمامة»، وهذا جهل وتهوين وتخذيل من هذا التوحيد، وتخذيل من هذا التوحيد للعناية به.

وربما قالوا الاهتمام بهذه الدعوة التوحيد فهمناه! والجواب: لو فهمته حققته!! وأثّر فيك وأُشربه قلبك؛ فإن كل أناءٍ بالذي فيه يَنضحُ ولابد! ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره، فهؤلاء أولياء الله جل وعلا دائم على لسانهم تسبيح وتهليل واستغفار لأنهم يحبون ذكر الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى: (وتُفيد أيضاً: أنَّه لو لم يكفر فإنه يُغلظ عليه الكلام تغليظاً شديداً، كما فعل رسول الله).

إذا لم يكفر لأجل جهله كما حصل من أولئك حُدثاء العهد في الإسلام جُهال، إما إذا تمادوا فهنا عرفوا وزال الجهل عنهم عندئذٍ يُكفرون فدل على أن الجهل مانع عظيم من موانع تكفير المُعين.

قال رحمه الله تعالى: (وللمشركين شبهة أخرى يقولون: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال: «لا إله إلا الله[1]»، وكذلك قوله: «أمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله[2]». وأحاديث أخرى في الكف عمَّن قالها، ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لا يكفر، ولا يُقتل ولو فعل ما فعل).

١١ـ الشبهة الحادية عشرة:

على سبيل التفصيل وهي ترجع في الحقيقة إلى الشبهة التاسعة، لكن أفردها الشيخ لأنه مما يستدل بها من أمور مشتبهة في الأدلة يُريدون أن يُهوِّنوا من شأن الشرك، وذلك أن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قتلهُ ظانّاً أنه ما قالها إلا خوفاً من السيف، وإلا فقد عنَّف عليه النبي عليه الصلاة والسلام.

وهذا من أدلة التحذير وشدَّة نكير تكفير المعين، وقتله وحمل السلاح عليه، لا أنها تُهوِّن من شأن الشرك وتُهون من شأن أهله أو تُبرِّره لمن يقع فيه وهو لا يشعر.

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب المغازي باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحركات من جهينة وطرفة في كتاب الديات (٦٨٧٢) وانظر فتح الباري كتاب الديات باب قول الله تعالى ﴿ومن أحياها . . .﴾ [المائدة: ٣٢].

(٢) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الاعتصام بسنن رسول الله ﷺ (٨/ ١٤٠ ـ ١٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

قال رحمه الله تعالى: (فيقال لهؤلاء المشركين الجهال: معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون: لا إله إلا الله. وأن أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلون ويدَّعون الإسلام. وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب بالنار، وهؤلاء الجهلة مُقرُّون أن من أنكر البعث كُفِّر وقُتل ولو قال: لا إله إلا الله، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها، فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعاً من الفروع، وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟

ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث: فأما حديث أسامة، فإنه قتل رجلاً ادَّعى الإسلام بسبب أنه ظنَّ أنه ما ادَّعى الإسلام إلا خوفاً على دمه وماله، والرجل إذا أظهر الإسلام وَجبَ الكف عنه حتى يُتبين منه ما يُخالف ذلك).

المقصود : هل يستدل بهذا أحد على أن النبي ﷺ وأصحابه، وعلي رضي الله عنه، بأنهم قتلوا من قال لا إله إلا الله؟ هل يصح استدلالهم بحديث أسامة؟ الجواب: لا يصح، لكن قتلوهم لَّما قام فيهم من الناقض من الكفر من الشرك، قوتلوا بذلك، ولم يُقبل منهم قول: لا إله إلا الله.

وهؤلاء اليهود يعرفون لا إله إلا الله، بلاعترض حبرٌ منهم على الصحابة، فقال: إنكم تُشركون تقولون: ما شاء الله وشاء محمد تقولون والكعبة، فنهاهم النبي ﷺ أن يقولوا: ما شاء الله وما شاء

محمد، قال: قولوا: «**ما شاء الله وحده**» وقولوا: «**ورب الكعبة**»[1] دلَّ ذلك كله على أنهم يعرفون التوحيد، ومع ذلك قاتلهم لِمَّا قام فيهم من النواقض الأخرى، وكذلك المرتدون، وكذلك من قاتلهم علي رضي الله عنه، وكذلك من يأتي فيه ناقض آخر من إنكار البعث، أو جحد ما جاء به الرسول، أو جحد أركان الإسلام، أو غيرها من قواطع الدين والمعلوم من الدين بالضرورة، فإنهم يقاتلون ويُكفرون من وليِّ أمر المسلمين أو من له الصلاحية من القضاة والأمراء ونحوهم فقط!

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣٧١، ٣٧٢)، والنسائي في الإيمان، باب الحلف بالكعبة، والحاكم (٤، ٢٩٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

قال رحمه الله تعالى: (وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (النساء: ٩٤). أي: فتثبتوا. فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل، لقوله تعالى: ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ . ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى).

وهذه جاءت في الصحيحين، أن غزوة غزاها النبي ﷺ فانطلق رجلُ من المشركين فاتبعهُ أسامة ورجلُ من الأنصار رضي الله عنهما فلما رأى بارقة السيف على رأسه قال: أشهد أن لا إله إلا الله فكَفَّ الأنصاري، لكن أسامة وكان شاباً يافعاً لأنه مات النبي ﷺ وعُمرهُ ثمانية عشرة سنة، فضربه أسامة فبلغ الخبر النبي عليه الصلاة والسلام فغضب على أسامة وأنكر عليه قال: «**أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله**»، قال: يا رسول الله ما قالها إلا خوفاً من القتل، قال: «**هلا شققت عن قلبه، كيف بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة**»؟!(١) ثم عذر النبي ﷺ أسامة رضي الله عنه وودى المقتول، أي: دفع ديته إلى أهله ولم يقم ﷺ على أسامة الحدَّ لأنه قتله متأولاً وودى المقتول دفع ديته، دلالة على أن هذا الأمر والحكم بإزهاق الناس لا يُتسرَّع إليه ولا يُبادر إليه بل يكون على وضوح كوضوح هذه البيضاء التي على رؤوسكم. ولا يدل الحديث والآية على أنه لا يُكفر أبداً من قال: لا إله إلا الله أبداً.

---

(١) تقدم تخريجه .

قال رحمهُ الله تعالى: (وكذلك الحديث الآخر وأمثاله معناه ما ذكرناه أن من أظهر التوحيد والإسلام وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يناقض ذلك، والدليل على هذا أن رسول الله ﷺ قال: «أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله».

وقال: «أمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»).

قوله رحمه الله: **(وكذلك في الحديث الآخر)** يعني حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»**[1].

---

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى: (هو الذي قال في الخوارج: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد» مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً وتسبيحاً، حتى أن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم، وهم تعلموا العلم من الصحابة، فلم تنفعهم لا إله إلا الله، ولا كثرة العبادة ولا ادِّعَاء الإسلام لمَّا ظهر منهم مخالفة الشريعة).

والمقصود أن هؤلاء الخوارج قُوتلوا على أحد أمرين:

١ ـ إما على كفر باستحلالهم دماء المسلمين وقتلهم.

٢ ـ أو على بغي، ومع ذلك ما منعتهم لا إله إلا الله من أن يُقتلوا على بغيهم وخروجهم على الجماعة.

فيدخلون في كلا الأمرين، وذلك أنهم قوتلو لعدم قيامهم بلا إله إلا الله بحسابها بحقها «**عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**» فما قاموا بحقها عندئذ وحسابهم على الله جل وعلا ولهذا تمنى ﷺ قتلهم، قال: «**هم شر قتلى تحت أديم السماء**»(١)، قال: «**لئن لقيتهم لاقتلنهم قتل عاد**».(٢)

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة رضي الله عنه في كتاب التفسير باب ٤ في تفسير سورة آل عمران، وقال: «هذا حديث حسن»، والإمام أحمد في المسند (٢٥٣، ٢٥٦)، وابن ماجه «مختصراً» في المقدمة ١/ ٦٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه كتاب السنة باب «في قتال الخوارج» حديث رقم (٤٧٦٤ ـ ٤٧٦٧) من حديث أبي سعيد الخدري وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنها، وأخرجه النسائي في سننه كتاب تحريم الدين باب «من شهر سيفه ثم وضعه في الناس».

قال رحمه الله تعالى: وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود، وقتال الصحابة بني حنيفة، وكذلك أراد النبي ﷺ أن يغزو بني المُصطلق لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (الحجرات: ٦) وكان الرجل كاذباً عليهم.

وكل هذا يدل على أن مراد النبي ﷺ في الأحاديث التي احتجوا بها ما ذكرناه.

قوله رحمه الله **(كذلك ما ذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة)** من أنهُ إذا قام بلا إله إلا الله، وقام بحقها، أما إذا لم يقم بحقها فلا، وإذا قالها قائل: لا إله إلا الله ولم يحقق معناها فلا!! أما إذا قالها ولم نعلم منه ما يناقضها، فنكف عنه، ونتثبت حتى نعرف حاله. لأن القاعدة الشرعية الكلية والعبادات بل والعقائد: «**أن اليقين لا يزول بالشك**» فتنبه لهذا أيها المسلم ولا تعجل في حكمك على الناس؟!

قال رحمه الله تعالى: (ولهم شبهة أخرى: وهو ما ذكره النبي ﷺ: أن الناس يوم القيامة سيتغيثون بآدم، ثم بنوح، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى، فكلهم يعتذرون حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ. قالوا: فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً).

١٢ـ الشبهة الثانية عشرة:

ومؤداها وباعتها: انظروا إلىٰ أهل الباطل كيف يبحثون عن تبرير لشركهم ولو في أشياء محتملة، مع أن هذا المعنىٰ الذي أشاروا إليه بعيد من هذا الحديث، وهذا إنما يكون يوم القيامة ليس في الدنيا، ولو كان في الدنيا مشروع سائغ لاستغاث الصحابة بالنبي ﷺ لما أصابتهم الخطوب المدلهمة وتكالبت عليهم الأعداء، ومع ذلك ما فعلوا ذلك، بل إنهم كادوا أن يهلكوا من شدة العطش ومع ذلك؛ استغاثوا بالله جل وعلا وتوسلوا بدعاء صالحيهم من الأحياء: بالعباس وهو حي!، فلماذا ذهبوا إلىٰ من هو أقل فضلاً ورتبة وشرفاً بعد النبي ﷺ، وهو عمه العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه، وتركوا ولم يتوجهوا إلىٰ النبي ﷺ؟ ولم يقولوا: يا نبي الله اشفع لنا؟! استسقِ لنا؟! فهل هؤلاء أصح فهوماً وأدق أفهاماً وعلوماً من الصحابة؟!! حاشا والله، لكن هؤلاء أهل شبه وتلبيس وتدليس علىٰ الناس ليزينوا لهم ويُسوغوا لهم وقوعهم بالشرك، ولا ينكر عليهم أهل التوحيد والإيمان. فهو منهم تبريراً لأهوائهم وحماية لمنافعهم ومكتسباتهم من تعظيم المقامات والانتصار للذات

والعقائد الفاسدة التي هم عليها، فتنبه لهذا المعنىٰ وتأمله فهو بيت القصيد! والله المستعان. فهؤلاء مرجئة مع هؤلاء القبورين مرجئة مع المشركين لا يُنكرون عليهم بل يعتقدون أنهم إما علىٰ حق وأنهم علىٰ باطل لكن ما يستحقون الشرك ولا الكفر بالله جل وعلا.

وهم خوارج مكفرة لأهل الإيمان والتوحيد أهل السنة والجماعة.

قال رحمه الله تعالى: والجواب: أن نقول سبحان من طبع على قلوب أعدائه، فإن الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لا ننكرها كما قال الله تعالى في قصة موسى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ (القصص: ١٥) وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب أو غيره في أشياء يقدر عليها المخلوق، ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله.

إذا ثبت ذلك، فاستغاثتهم بالأنبياء يوم القيامة يُريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف.

وهذا جائز في الدنيا والآخرة، وذلك أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك، ويسمع كلامك، فتقول له: ادع الله لي، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه الدعاء في حياته.

وأما بعد موته فحاشا! وكلا! أنهم سألوه ذلك عند قبره، بل أنكر السلف الصالح على من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف بدعائه نفسه!!!

كما نقل مثل ذلك عن مالك رحمه الله وغيره، وحكي عليه اتفاق السلف غير واحد!

وهذا سبق أن قررناه غير مرة أن الاستغاثة من الحي القادر الذي يستطيع أن يعينك ويسمع كلامك وينصرك جائز كما قال تعالى:

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾، وكذلك يوم القيامة النبي يسمعك، حيث يأتون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمداً ﷺ، فإنهم يسمعونهم، لا أنه يدعوهم بعد موتهم، بعد مغادرتهم للدنيا، وبعد انفصال الدارين: دار الدنيا عن دار البرزخ بعضها عن بعض؛ فإن هذا هو الشرك الذي حذرهُ الصحابة ولم يقع من أحد منهم البتة.

قال رحمه الله تعالى: (ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم لمَّا أُلقي في النار اعترض له جبريل في الهواء، فقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم: أما إليك فلا.. قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركاً لم يعرضها على إبراهيم؟ فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدرُ عليه، فإنه كما قال تعالى فيه: ﴿شديد القوي﴾ (النجم: ٥) فلو أذَنَ الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال ويُلقيها في المشرق أو المغرب لفعل، ولو أمره أن يضع إبراهيم في مكان بعيد عنهم لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل، وهذا كرجل غنيٍ له مال كثير، يرى رجلاً محتاجاً فيعرض عليه أن يقرضه أو أن يهبه شيئاً يقضي به حاجته فيأبى ذلك المحتاج أن يأخذ ويصبر إلى أن يأتيه الله برزق لا منة فيه لأحد، فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون؟!)

١٣ـ الشبهة الثالثة عشرة:

وهي الأخيرة وخلاصتها ومقصودها : جبريل أهو حي أو ميت؟! أيسمعه أو لا يسمعه؟ لكن نسأل الله أن لا يطبع على قلوبنا وأن لا يضلنا بعد إذ هدانا، وهذا ظاهر في كشفها، وهي أن الاستغاثة لو حصلت من إبراهيم بجبريل عليهما الصلاة والسلام فإنه يقدر عليه ويسمعه، وهي من الاستغاثة الجائزة.

وأما أنها لم تحصل لأن إبراهيم عليه السلام إنما فوَّض أمره إلى ربه ومعبوده لكمال إيمانه وتوحيده وتقواه فوض الأمر إلى الله وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ولذا ثبت في الصحيح[١] قول ابن عباس رضي الله عنهما: «**حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ، حين قال لهم الناس: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾** (آل عمران)

ثم ختم الشيخ بخاتمةٍ بديعةٍ جليلةٍ:

(١) أخرجه البخاري في كتاب «التفسير، باب تفسير سورة آل عمران، ٣/ ٢١١).

خاتمة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى لكشف الشبهات

وخلاصة هذه الخاتمة ومقصودها أن **من عرف التوحيد وتركه، أو عرف الكفر فوقع فيه، غير مكره، فهو غير معذور!** وهذه الخاتمة (في مسألة التكفير والحكم على المعين وغير معين بالكفر) أن من عرف هذا التوحيد ثم تركه إما وقوعاً في ضده، أو إعراضاً عنه، فهذا غير معذور..

أو عرف الشرك ووقع فيه، ويعرف أن هذا شرك وهو غير معذور فهذا يُكفر بعينه سواء: بقوله أو بعمله أو بنيته، وقصده ولا كرامة له!

قال رحمه الله تعالى: (ولنختم الكلام. إن شاء الله تعالى. بمسألة عظيمة مهمة جداً تُفهم مِمَّا تقدم، ولكن نُفرد لها الكلام لعظم شأنها، ولكثرة الغلط فيها، فنقول: لا خلاف أن التوحيد لابُد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً، فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما).

إذاً أفرد الكلام عليهما لعلتين:

١ ـ لعظم شأنها.

٢ ـ ولكثرة الغلط فيها.

قال رحمه الله تعالى: (وهذا يغلط فيه كثير من الناس، يقولون هذا حق، ونحن نفهم هذا، ونشهد أنه الحق، ولكنا لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم، أو غير ذلك من الأعذار).

والمقصود: هل هذا عذر مقبول؟ الجواب: لا ليس مقبولاً.

فإذا عرفت التوحيد فاعمل به، ولا تبرر الشرك لأهله، أو تسوِّغه لهم، أو تعذرهم به، فمادام أنك عرفت التوحيد فاعمل به وقُل به إلا أن تكون مكرهاً، كأن يكون السيف على رأسك في حالة من حالات الإكراه؛ فعندئذ تُعذر في الظاهر! لكن قلبك لابد أن يكون منشرحاً في التوحيد.

وانتبه إلى قاعدة شريفة، وهي: **أن الإكراه بالقول والفعل، ولا يصح بالاعتقاد**؟ لأن الاعتقاد لا يطلع عليه إلا الله جل وعلا.

قال رحمه الله تعالى: (ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق، ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار كما قال تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (التوبة: ٩) وغير ذلك من الآيات، كقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (البقرة: ١٤٦). فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه، أو لا يعتقده بقلبه فهو منافق، وهو شرٌ من الكافر الخالص؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ (النساء: ١٤٥) إن كان لا يفهمه لعجمته فهذا معذور بينه وبين الله، وإن كان لا يفهمه لتقصيره فهذا لا يعذره!)

وهذا الذي عناه الشيخ، لا يفهمه هؤلاء وأمثالهم لأنهم قصروا في معرفته، ولم يهتموا به، فهذا لا يُعذر عند الشيخ، وهذا ظاهر في بداهة العقل، وفي ظاهر وصراحة النص.

قال رحمه الله تعالى: (وهذه المسألة كبيرة وطويلة تتبين لك إذا تأملتها في السنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دُنيا أو جاه، أو مدارة لأحد.

وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً، فإذا سألته عما يعتقده بقلبه فإذا هو لا يعرفه، ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله: أولاهما: قوله تعالى: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (التوبة: ٦٦) فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزو الروم مع الرسول ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب، تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر، أو يعمل به خوفاً من نقص مال، أو جاه، أو مداراة لأحد أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها، وأولئك يعدون في الجملة من الصحابة حتى تبين حالهم بمقالتهم، ومن تاب منهم تاب الله عليه.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)﴾ (النحل) فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أُكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان. وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه سواء فعله خوفاً أو مداراة، أو مشحَّة بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله، أو فعله على وجه المزح، أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره).

فهاتان الآياتان: آية براءة وآية النحل أصلان عظيمان في التكفير:

تكفير المعين، وغير المعين، فلابُد أن تُفهم حق الفهم، وتُنزل في أهلها، ولا يُسّوغ بهما أن لا يُكفر الشرك وأهله، أو أن يُبرّر في تكفير صاحب المعصية، فلا بد من فهمهما على الواقع الصحيح، فمن فهم الآيتين حق الفهم برئ من مذهبي الوعيدية ومذهب المرجئة.

ولا بد من التنبيه على شروط التكفير للمعين وموانعها، وهي إجمالاً.

١ ـ العلم ومانعه الجهل .

٢ ـ التكليف وعدمه .

٣ ـ الاختيار مانعه الإكراه .

٤ ـ القصد الخطأ والتأويل .

واحذر من تكفير من لا يكفر! أو عدم تكفير من يستحق التكفير. واعلم وحقق القول والعمل الذي يكون كفراً أو شرعاً أو نفاقاً أكبر، مخرج عن الملة، ومحبط للعمل من الكفر والشرك والنفاق والأصغر الذي بخلاف ذلك فلا يخرج من الملة ولا يحبط جميع العمل.

تنبيه:

لا يجوز الخوض في التكفير على المعينين إلا من قبل فئتين من العلماء:

١ ـ القضاة الشرعيون المؤهلون، الذين يوقعون أحكام الله في خلقه.

٢ ـ العلماء الراسخون، بما عندهم من العلم بالتكفير، وأهله المستحقين له، والعلم بالحال... إلخ.

قال رحمه الله تعالى: (فالآية تدل على هذا من جهتين:

الأولى: قوله (إلا من أُكره) فلم يستثن الله تعالى إلا المكره ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على الكلام أو الفعل، وأما عقيدة القلب فلا يُكره عليها أحد).

إذاً الإكراه لا يبلغ الاعتقاد إنما يبلغ الأفعال، واختلفوا هل يبلغ القول أو لا؟ والظاهر أنه يبلغه، هذا إذا لم يجد له سبيل إلى تأويل أو إلى حذف أو إلى تقدير وإنما اضطر إلى قول الكفر وأكره عليه. فعندنا مقامان مهمان:

١ . **المقام الأول**: أن تعرف أنه اضطر إلى أن يقول كلمة الكفر وليس له سبيل ومخرج، فإن كان له سبيل وقال الكفر فهذا يكفر؟!

٢ . **المقام الثاني**: أن التكفير يتعلق بالأقوال والأفعال والاعتقادات، ولا تنال النوايا في المقاصد ولا ينال ما في القلب! فنحن نحكم على الظاهر والقلوب لا يعلم ما فيها إلا الله.

قال رحمه الله تعالى: (والثانية: قوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد، أو الجهل، أو البغض للدين، أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره على الدين.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم).

قوله رحمه الله في قوله تعالىٰ: **﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾** يعني: استهانوا بالكفر وهذا حكم مُعلل، والحكم إذا عُلل دار مع علته وجوداً وعدماً، **﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾** ما بالوا ما ألقوا لهذا الأمر بالاً، فما بالوا به، وعندئذ ادّعوا الإكراه وهم غير مكرهين في واقع الحال؟!

وتم الكلام عليها بما فتح الله به وهي تحتاج إلىٰ تنظيم وتفصيل، وقد عُني بها عُلماؤنا وبينوها وشرحوها، وقد شرحها شيخ مشايخنا: الشيخ محمد بن إبراهيم وشرحه مطبوع، وشرحها الشيخ ابن باز وابن عثيمين وصالح الفوزان، ومازال العلماء قديماً وحديثاً يشرحونها لطلابهم؛ لأن معناها والتفقه بها سلاح للمؤمن عند أهل الكفر وأهل الشرك نعوذ بالله ذلك، فرحم الله الشيخ المجدد وعلماء الدعوة وعلماء المسلمين وأجزل لهم المثوبة والأجر، وأعلىٰ مقامهم في الدارين عن الإسلام وأهله وأتبعنا بهم علىٰ عمل صالح ونية خالصة إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه